A. U. B. LIBRARY

297.197
I82isA
C.1

الإسلام

في نظر الغرب

بقلم

فيليب حتي — جون كينجسلي
بايرد دودج — وليم ياندل اليوت
ولفرد كانتول سمث — و. وندل كيلاند
محمد حسن الزيات — فيليب و. أيرلند

نقله إلى العربية
الدكتور إسحاق موسى الحسيني

علّق عليه
الدكتور علي عبد الواحد وافي

دار بيروت
للطباعة والنشر
بيروت ١٩٥٣

مقدّمة

يكاد اهتمام الغرب بالاسلام والعالم الاسلامي في هذه الايام يبلغ حداً لا نظير له في التاريخ . ويرجع ذلك ، في الدرجة الاولى ، الى وقوع العالم الاسلامي من العالم موقع الحزام من وسط الانسان . وهذا الموقع يشير اشارة بليغة الى القيمة الحربية العامة – من حيث الخطط الحربية والقوى المائية والنفط وممكنات التطور الزراعي والصناعي – التي ينعم بها العالم الاسلامي ، لخيره أو لشره ، حسبما يختار زعماؤه الذين تقع عليهم التبعة .

وقد أدى هذا الاهتمام الى العكوف على دراسة العالم الاسلامي من جميع النواحي ، والى كتابة الكتب والمقالات ، والى رصد الحركات والسكنات ، والى مراقبة التطور مراقبة دقيقة شاملة .

ومن نتائج ذلك ، هذا الكتاب الذي يحتوي ثمانية مباحث أعدها وألقاها ثمانية من كبار المتخصصين في دراسة العالم الاسلامي ، في المؤتمر السنوي الخامس ، الذي نظمه معهد الشرق الأوسط[1] في واشنطن في أوائل شهر مارس سنة ١٩٥١ .

(1) Middle East Institute, Washington

والمبحث الأول للمؤرخ المشهور الاستاذ فيليب حتي ، رئيس دائرة اللغات والآداب الشرقية في جامعة برنستون . والثاني للمستر بايرد دودج الرئيس السابق للجامعة الاميركية في بيروت ، الذي قضى في هذه البلاد شطراً كبيراً من عمره ، وخالط بحكم عمله عدداً كبيراً من الشبان المسلمين . والثالث للمستر ولفرد سمث ، رئيس المعهد الاسلامي في جامعة ماك كيل في كندا ، ومؤلف كتاب « الاسلام الحديث في الهند » ، وقد قضى زمناً في مدينة لاهور «الباكستان » مدرساً ودارساً ، واستطاع بحكم عمله أن يطلع على آراء الشبان المسلمين ، وأن يراقب عن كثب الاتجاهات الدينية الحديثة . والرابع للاستاذ محمد حسن الزيات الملحق الثقافي بالسفارة المصرية في واشنطن . والخامس للمستر كينجسلي بيردج ، مدير دائرة المطبوعات التابعة لمجلس مديري الارساليات الأجنبية في استانبول ، ومؤلف كتاب « نظام الدراويش البكطاشيين » ومن الخبيرين بتاريخ تركيا ولغتها . والسادس للمستر وليم ياندل اليوت ، استاذ التاريخ والسياسة في جامعة هارفارد . والسابع للمستر و. وندل كيلاند ، احد كبار موظفي وزارة الخارجية الاميركية ، وأحد اساتذة الجامعة الأميركية في القاهرة سابقاً . وهو ذو اطلاع واسع – بحكم عمله السابق واللاحق – على شؤون العالم الاسلامي ، وخاصة مصر . والثامن للمستر فيليب و. أيرلند، احد كبار موظفي وزارة الخارجية الاميركية ، ومؤلف كتاب « دراسة في تطور العراق السياسي » و كتاب « الشرق الادنى » .

ولست أود ان اعلق على هذا الكتاب بشيء . فللقارىء ان

يمعن النظر فيه ويكوّن رأيه الخاص .

على اني أرغب في ذكر الاسباب التي دعتني الى ترجمته ، وهي ثلاثة :

الاول : حرصي على ان يطلع المسلمون، في المشرق والمغرب، على آراء طائفة من الباحثين الغربيين في الاسلام والمسلمين .

والثاني : ان استرعي انتباه القراء الى اهمية العالم الاسلامي ، هذه الأهمية البالغة التي أعتقد ان الخاصة ، التي يتكون منها الزعماء والقادة ورجال العلم والدين ، لم تحط بها ولم تدركها ادراكاً يتفق وخطرها .

والثالث : الاهابة بالباحثين ، من عرب ومسلمين ، إلى معالجة هذا الموضوع الجليل باسلوب علمي رصين ، كي تكون الصورة المعروضة على الغرب أقرب الى الصحة والصواب .

ولئن كان ماضي العرب والمسلمين ما يزال محتاجاً الى البحث والشرح والتفسير ، إن حاضرهم اليوم أشد حاجة الى ذلك ، لأنه يواجه مواقف حاسمة يتوقف عليها بقاؤهم ، أو على الأقل ، بقاء جزء كبير من تراثهم العام . وانه لمن العجب ان يغوص نفر من الباحثين الغربيين في جوهر الاسلام ، وفي قدس أقداس المسلمين ، وفي صميم حياتهم العقلية والروحية والاجتماعية – على النحو الذي نرى في هذا الكتاب – والباحثون المسلمون أنفسهم يعيشون على هامش الحياة، لا يكادون يدركون خطر دينهم وبلادهم وشعوبهم ،

وطبيعة المشاكل التي تواجهها بلادهم ، ومبلغ عناية الغرب والشرق بشؤونهم ، لصالحهم أو لطالحهم على السواء .

هذه هي الأسباب التي حدت بي الى ترجمة الكتاب، وقد كنت قرأته أولاً للفائدة العلميـــة ، ثم تبينت لي اهميته ، ولاحت لي الاغراض الثلاثة السابق ذكرها فأقدمت على الترجمة .

ولست بحاجـة إلى القول أن في الكتاب آراء تستفز الشعور وتجانب الحق، ولكنها آراء اصحابها وعليهم وحدهم تقع تبعتهـــا علمياً وأدبياً . ولم أشأ – انا شخصياً – ان اتولى التعقيب عليهـا ، لأنه يستلزم جهـــداً لا قدرة لي عليه. ولذلك رجوت الاستاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي رئيس قسم الاجتماع ووكيل كلية الآداب في جامعة فؤاد الأول – وهو من كبار المتخصصين في هذه المباحث ، وله من مكانته العلمية ومن ثقافته الواسعة الاسلامية والاوربية ما يتيح له القيام بذلك على أحسن وجـه – ان يصحح ما يرى وجوب تصحيحه مما وقع فيه هؤلاء الباحثون من أخطاء . فتفضل مشكوراً بكتابة التعليقات التي يراها القارىء مدوّنة في الهامش .

هذا ، ويهمني ان أقرر بوضوح وصراحة تامين ، اني انظر إلى الكتاب من الناحية العلمية وحدها .

والله تعالى ولي التوفيق والرشاد .

بيروت ١٩٥٢ ا.م.ح.

الاتجاه الحديث في الاسلام

بقلم فيليب حتى
رئيس دائرة اللغات والآداب الشرقية
بجامعة برنستون

●

ان كلمة « إســـلام » تعني لغةً الخضوع ، من فعل سلم . وتستعمل اصطلاحاً للدلالة على ثلاثة امور :

اولاً ـ الدين الذي أتى به النبي محمد ، وينطوي على عبادات وعقائد يعتنقها اليوم زهاء ٣٥٠ مليون نسمة .

ثانياً ـ الدولة العربية الواسعة التي تمخضت عنها الفتوحـــات الاسلامية الاولى ، والتي امتـــدت وقتاً ما من شواطىء المحيط الأطلسي الى حدود الصين .

ثالثاً ـ الثقافة التي تجمع بين العناصر الثقافية العربية والفارسية والسامية والهيلينية وتؤلف الحضارة الاسلامية .

أثر الثقافة الغربية في الاسلام

وسنقتصر في بحثنا اليوم على الدلالة الثالثة – أي الثقافة – ولكن بما ان الثقافة الاسلامية تشمل منطقة واسعة تمتد من مراكش الى أواسط آسيا فعلينا ان نحصر أنفسنا ، جغرافياً ، في منطقة صغيرة هي غرب آسيا ومصر ، التي تُعدُّ قلب الاسلام ، وفي ناحية واحدة من نواحي الثقافة هي الناحية العقلية . وبما أن هذا النشاط العقلي يسلك مسالك متعددة فسنختار اليوم واحداً منها ، هو أثر الغرب في الشرق ، لانه أهم هذه المسالك وأعظمها أثراً في تاريخ هذا الجزء من العالم ، في اثناء قرن ونصف قرن على أقل تقدير . وعلى ذلك فسؤالنا اليوم هو : ماذا كان رد فعل الثقافة الغربية عند الطبقات المتعلمة في غربي آسيا ومصر ؟

إن أول تأثير للغرب – أي اول احتكاك في العصور الحديثة بين الغرب وهذا القسم من الشرق – كان عسكرياً . وانا أشير بذلك الى غزو نابوليون لوادي النيل قبيل بدء القرن التاسع عشر . ولقد كان احتلال فرنسا العسكري لمصر قليل الشأن بالقياس الى النتائج التي نجمت عنه . فالاحتلال ولّد اول « صدمة » كما يصح ان يقال ، أيقظت الشرق من غفوته القروسطية[1] . وقبل ذلك – قبل السنوات الاخيرة من القرن الثامن عشر – كانت شعوب الشرق الأدنى تعيش منطوية على نفسها غير منتبهة للغرب . والواقع انه كانت هناك غفلة تامة عن اوربا في جميع العالم الاسلامي .

(١) نسبة الى القرون الوسطى .

وبالاحتلال انبثق فجر عصر جديد . فقد جلب نابوليون معه مطبعة عربية كان سلبها من الفاتيكان . وأنشأ مجمعاً علمياً ، أشبه بجمعية أدبية وعلمية .

وكان في الجيش الذي أعان على طرد نابوليون من مصر ضابط تركي ، اسمه محمد علي ، تابع حين اصبح فيما بعدُ والياً على مصر، التقدم على الأسس التي أنشأها نابوليون . فقد ارسل محمد علي البعثات لا لدرس علوم الحرب وفنونها، بل لدرس الطب والصيدلة والهندسة ايضاً . وتجاوز ذلك بان دعا البعثات من فرنسا على وجه خاص،ومن انكلترا ومن غيرهما من البلدان الاوربية . وبعد ذلك بقليل اقام ابنه ، ابراهيم باشا ، حكماً صالحاً نسبياً في سوريا من سنة ١٨٣١—١٨٤٠ فاتحاً الباب لثقافة جديدة . وفي هذه الفترة وضعت الارساليات الاميركية قدماً ثابتة في التربة اللبنانية . وقد أنشئت مطبعة الارسالية الاميركية سنة ١٨٣٥ ، وتبعها بعد ذلك بقليل مطبعة اليسوعيين العربية . وفي سنة ١٨٦٦ افتتحت الكلية السورية البروتستانتية المعروفة اليوم بالجامعة الاميركية في بيروت وتبعتها بعدُ جامعة القديس يوسف . وهذه المؤسسات الاربع التي ما تزال قائمة هي أهم المؤسسات التي من نوعها في تلك البقعة من العالم . ونبتت بعدُ على شواطىء البحر المتوسط مطابعُ اهلية ومعاهد ومدارس وجرائد ومجلات وجمعيات علمية وأدبية محتذية كلها حذو مثيلاتها في اوربا الغربية والولايات المتحدة . وهكذا التحمت الحلقات بعضها ببعض في تلك السلسلة التي تربط ثقافة

الشرق الادنى الحديثة بالثقافة الاميركية – الاوربية .

وفي سنة ١٨٨٢ احتلت بريطانيا مصر واستقرت فيها نوعاً من الاستقرار الى سنة ١٩٣٦ ، ثم بعد الحرب الكبرى الاولى تولت الانتداب على فلسطين والعراق . وفي الوقت نفسه تولت فرنسا الانتداب على سوريا ولبنان. ونجم عن ذلك احتكاك سياسي جديد ظل الى القسم الاخير من الحرب العالمية الثانية . وكان من أثر الاحتكاك الاقتصادي بين الغرب والشرق الأدنى ، أن اكتشف النفط في العراق في أواسط العقد الثاني ، وفي العربية السعودية في بداية العقد الثالث ، وهذا الأمر أدى الى ظهور عامل اقتصادي في حياة الشرق الأدنى على أعظم جانب من الأهمية والنفاذ.

وهكذا نشأ احتكاك ثقافي وحربي وسياسي واقتصادي في هذا القرن ونصف القرن أدى الى سلسلة من الهزات في عقول الشعوب – الى اضطراب نفسي وتنازع ، وانحراف في نوازع الولاء القديم وأزمات اجتماعية وتوتر . ان تلقيح التقاليد القديمة بافكار ذات أثر عنيف كالقومية والديموقراطية السياسية ، ليس بالأمر الهين ، إذ لا بد من ان يؤدي الى ارتباك في الأوضاع .

تفاعل الثقافتين الغربية والاسلامية

وقد بدأت تتبلور تدريجاً ثلاث مدارس فكرية من أثر هذا الاضطراب – الذي يمكن ان نسميه اختلالاً اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً .

وأول هذه المدارس، المدرسة التي يمثلها الاتراك الكماليون الذين قاموا بانفصال تام عن الماضي – كأن هذا الانفصال ممكن الحدوث ولو تم باساليب عنيفة – بقطع الشعب عن تراثه، وبقبول القيم الغربية قبولاً تاماً، وبنسج شخصية الشعب على منوال غربي سائد. وكان التنفيذ ثورياً، يملى من أعلى، ومؤدياً الى فرض الحكومة النظام على الشعب. وكان شعار هذه المدرسة – التي يمكن ان تسمى «المدرسة اليسارية» – «اقتباس الحضارة الغربية بعجرها وبجرها». بيد أن تغيير لباس الرأس لم يَعْنِ ضرورةً تغيير ما في الرأس. فقد أخذت الافكار القديمة تعود بصور جديدة.

وظهرت في منتهى الطرف الآخر جماعة محافظة (يمكن أن نسميها الجناح الأيمن) يمثلها سواد سكان الجزيرة العربية، الوهابيون، الذين أداروا ظهورهم للعلمانية، للتجديد، لما هو غربي، ويمثلها غيرهم ممن لا يزال يجري وراء سراب الحكومة الدينية في صحراء الحجاز وفي اليمن. وهؤلاء ظلوا في عزلة، قليلي الحظ من الخصب أو التبادل الثقافي بينهم وبين الغرب.

ويمثل هذه الرجعية ايضاً حركة الوحدة الاسلامية. وفي حين تحاول الوحدة العربية ان تجعل من اللغة والثقافة، الوحدة المشتركة، فان الوحدة الاسلامية تجعل الدين، هو الوحدة المشتركة. فالوحدة الاسلامية تنظر الى الوراء، والوحدة العربية تنظر الى الامام. الوحدة الاسلامية تستلهم الافكار التي ترجع الى القرون الوسطى

فهي مخالفة الغرب ومخالفة الديموقراطية . والاخوان المسلمون يمثلون هذه الحركة في اسوأ مظاهرها [1]. وقد دعا أحد الاخوان السباعي « الشيخ مصطفى السباعي » في دمشق إلى أن يكون الاسلام دين الدولة الحديثة . وهو وزملاؤه يوصون بالتعامل مع روسيا ، لا لأنهم يحبون الشيوعيـــة بل لأنهم يكرهون الدول الديموقراطية ، وهم يتوددون إلى الشيوعيـــة لأنهم يرونها أهون الشرين . واغتيال رئيس وزراء ايران ، الذي نقرأ عنه في الصحف اليوم ، هو إحدى نتائج هذه الحركة ، التي أسميها الوحـــدة الاسلامية .

وتقوم بين هـذين الطرفين البعيدين — بين اليسار واليمين — جماعة يمثلها العالم العربي ومصر . وطريق هذه الجماعة الوسطى أصعب من طريق الجناحين الايسر والأيمن من بعض النواحي . ذلك انه حين يقرر الجناحان — « نحن لا نريد ان نأخذ الحضارة الغربية » ، أو « نحن لا نريد ان تكون لنا أدنى علاقة بآراء الغرب ونفوذه » — حين يقطعـان بالرأي فانه يسهل عليهما إلى حد ما أن يسلكا سبيلهما . اما الجماعة الوسطى فانها تواجه عملية اختيار دائم — اختيار وانتقاء وحذف وتبنٍّ وتكيّف . أين يبدأ التقليد والاستعارة ؟ اين تنتهي الاستعارة ويبدأ التكيّف ؟ كيف يمكن ان نحافظ على القيم الموجودة في تراثنا في وجه القيم الغربية ؟ كيف يمكن ان

---

(١) في هذا الحكم قسوة على الاخوان. انظر كتابنا (الاخوان المسلمون) الصادر عن دار بيروت للطباعة والنشر سنة ١٩٥٢ «المترجم»

نختار ما نريد ونلائم بينه وبين ما لدينا ؟ كل هذه مشاكل صعبة . ولا غرابة أن ساد الاضطراب هذه الفئة التي تختار الطريقة الوسطى . ولم تتوافر القيادة الكاملة للنهوض بالعبء ولا التنظيم . وما تزال الوسيلة قائمة على التقليد والفضول بدلاً من الانتاج والابداع .

وبعض نواحي هذا الاختيار الثقافي والتكيف، اكثر تعقيداً من بعضه الآخر . فالعناصر التي تتعلق بالموضوعات الفنية[1] وبالفن التطبيقي ووسائله لا يصعب اقتباسها لأنها لا تستلزم تغييراً جوهرياً في الكيان . ومع ذلك ينبغي ان نذكر ان الموضوعات الاقتصادية تتصل بالموضوعات الاجتماعية والسياسية والدينية . فليس هناك مسألة موضوعة في وعاء منعزل عن غيره .

وقد جرت اصلاحات في الحقل الاجتماعي على وجه لا بأس به من السرعة والتوفيق كاصلاح حال المرأة . وأذكر انه عندما ذهبت أنا وزوجي إلى الجامعة الاميركية في بيروت في أوائل ١٩٢٠ اني اضطررت إلى مخاطبة طائفة من السيدات المسلمات الناهضات اللواتي جئن لتحية زوجي ، من وراء ستار . وفي سنة ١٩٤٧ عندما ذهبت وزوجي إلى بيروت ثانية وقابلت اولئك السيدات انفسهن كان يتعذر عليّ ان احكم أهنّ مسلمات أم اميركيات أم اوربيات . وفي ذلك التاريخ السابق كنت يوماً في شرفة فندق « الكونتننتال » في القاهرة أتحدث إلى الطلاب الذين يرغبون في

(١) Technical

الانتساب إلى الجامعة، واذكر جيداً ان سيدة مسلمة تضع على وجهها حجاباً كثيفاً جاءتني برفقة خادمها ، وحين استقبلتها (وكان ذلك اليوم من ايام ايلول الحارة ، ومن كان منكم في القاهرة يعلم ما يمكن ان تبلغه الحرارة من الشدة في بعض الأيام) سألتني هل أيسّر لها التحدث إليّ داخل الغرفة ؛ ذلك انها ارادت ان ترفع الحجاب لكي تستطيع ان تتنفس وتتكلم إلي بحرية. وكانت تخشى ان تفعل ذلك في الشرفة . وعندما كنت وزوجي قبل شهرين في القاهرة ، في شهري كانون الاول وكانون الثاني، جالسين في شرفة «الكونتيننتال» أو «شبرد» كان يتعذر علينا ان نحكم على النسوة اللواتي حولنا أمصريات هن أم فرنسيات أم انكليزيات أم اميركيات . وقد تم هذا التطور كله في اثناء حياتي ! إن نساء سوريا الآن يتمتعن بحق الانتخاب ، ونساء لبنان يقلن : « من يزعم ان نساء دمشق اكثر منا تقدماً ؟ وكيف يمكن ان يكون ذلك؟ نحن نريد ان نتمتع بحق الانتخاب ايضاً ». وقد بلغتنا حديثاً اخبار عن سيدات مصريات اعتقلت زعيمتهن امس ، وهي سيدة تحمل شهادة الدكتوراه من السربون ولها ولدان وعمرها ٣٤ سنة. ومع ذلك بلغت بها الشجاعة ان قادت فرقة من السيدات لاقتحام مجلس النواب المصري .

إن النظم السياسية في الشرق الأدنى قد تكيفت إلى حد ما وفق الآراء الغربية . وصور المنظمات السياسية على الاقل — دساتير القوانين والخدمات الفنية — تختلف قليلاً عن مثيلاتها

الغربية . فلبنان وسوريا جمهوريتان ؛ ومصر والعراق والاردن ممالك دستورية . ويعترف بان النظم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية بعيدة عن بلوغ درجة الكمال ، ولكن الاتجاه يسير نحو الأصطباغ بالصبغة الغربية الكاملة ، ولا سيما ما يتعلق بالشؤون الفنية (التقنية[1]) الاقتصادية والسياسية .

هذا كل ما يمكن أن يقال عن المستوى الثقافي والروحي . وهناك اتجاه نحو التحرر الفكري ، ونحو معالجة المشاكل معالجة اقرب إلى العلم . بيد ان الواقع ان اساليب التفكير القديمة ما تزال قائمة . وفيما يتعلق بموضوعي الدين والفلسفة لم يثمر الأثر الغربي تغييراً عميقاً . فمن أطلال المجتمع في الشرق الأدنى — المجتمع الاسلامي — ما يزال نظام واحد ثابتاً على حاله ، نظام ذو سلطان : هو الاسلام ديناً . وقد وقع تغيير ، في المظاهر الخارجية فقط ، وسيظل هذا التغيير مستمراً . ولكن هناك مجموعاً صلباً من المبادىء والافكار الناجمة عن الاسلام ، بوصفه ديناً ، يبدو انه سيبقى على ما هو عليه — كوحدانية الله ، ونبوة محمد ورسالته ، وقدسية القرآن . ولم أجد في زيارتي الأخيرة مسلماً واحداً خرج على هذه العقائد . وقد جاء وقت في مستهل القرن العشرين نظر فيه المفكرون المصريون إلى الاسلام والقرآن بروح النقد كما ننظر نحن إلى الكتب المقدسة . ومن هؤلاء لطفي السيد الذي صار مديراً لجامعة فؤاد ، ومصطفى عبد الرازق الذي تولى مشيخة

---

(١) Technical

الأزهر[1]. اما اليوم فان ارتفع صوت من هذا النوع فلا بد من أن يكون ضعيفاً بحيث لا اسمعه. فهناك رواسب من المبادىء المتعلقة بالفلسفة والدين ما تزال على حالها رغماً عن تأثير الغرب. وعلى ذلك فالنتيجة التي نصل اليها هي ان الاتجاه في الفلسفة نحو الامتزاج بالتفكير الغربي لا نحو التغريب[2] الكامل.

مسؤولية الغرب

وإلى هنا قد اقتصرنا على عرض تأثير الغرب في الشرق من وجهة النظر الشرقية. أما من وجهة النظر الغربية فالاتجاه يسير في طريق ذات مسلكين — فهناك قوى تدفع من الخلف، في حين يجب ان توجد قوى اعظم تجتذب من الأمام. على انه لا يجوز غض النظر عن النتائج السيئة الناجمة عن النفوذ الغربي. ولسوء الحظ لم يكن تأثير الغرب طيباً، ولا سيما في اثناء العقد الاخير او العقدين الاخيرين. فهناك مفارقة ظاهرة بين الآراء الانسانية التي تعتنقها الارساليات الغربية، والمعلمون والمبشرون، وبين الزراية بالقيم الانسانية التي يظهرها رجال السياسة والحرب الاوربيون والاميركيون؛ فهناك تفاوت بين الكلام والعمل؛ ومغالاة في التوكيد

(١) لم يعرف شيء من هذا عن المغفور له الشيخ مصطفى عبد الرازق، ولعل المؤلف يقصد الدكتور طه حسين باشا في كتابه «الشعر الجاهلي» أو «علي عبد الرازق» شقيق الشيخ مصطفى عبدالرازق في كتابه «الاسلام واصول الحكم» ومهما يكن من شيء فان هذا الاتجاه لم يجد له انصاراً ولقي مقاومة شديدة من المجتمع المصري، فمات في مهده.

(٢) Westernization

على القيم الاقتصادية والقومية . وقد كان سلوك الأمم التي تسمّى متحضرة في خلال الحربين الأخيرتين سلوكاً لا نظير له في التاريخ، إذ قد أطلقت العنان لقواها الجهنمية التي هي من نتاج علمها وآلتها، والتي تنذر العالم اليوم بالدمار . ويذكر على وجه خاص بالنسبة إلى الشرق الأدنى معالجة امريكا وانكلترا وفرنسا وغيرها من الأمم للقضية الفلسطينية . وجميع هذه الأعمال دعت الى ابتئاس رجل الشرق الأدنى الذي كان يحاول ان يقيم علاقات ثقافية طيبة مع الغرب . وأعمال الغرب هذه هي التي أقصته عنه ، وزعزعت إيمانه بسلوك الغربي واخلاقه ، من الناحية الشخصية والناحية العامة . وقد تضعضع نفوذ الشبان الذين تخرجوا من المعاهد الأميركية في الشرق الأدنى وفقدوا وجاهتهم . وكانت احدى نتائج هذه الحالة اعادة إحياء « الجامعة الاسلامية » .

وينبغي ان اصرح باخلاص ان زيارتي للقاهرة قبل نحو شهرين اقنعتني باننا لم نكسب عقول رجال الشرق الأدنى المتنورين في صراعنا مع الشيوعية الروسية . فالديموقراطيات لا تتكلم عن عقيدة وبصوت واضح . وليس لنا من يتكلم بلساننا . ويبدو انه لا رسالة لنا ! ونحن لا نستطيع أن نعرض قضيتنا على نحو ما تعرض الرواية التمثيلية ، خلافاً لما يفعله منافسونا الذين يتوسلون باساليب جديدة ، ويعرضون قضيتهم مباشرة على الرجل العامي والرجل المثقف دون اطلاع الحكام. فهم يعرفون كيف يعرضون قضيتهم عرضاً تمثيلياً ، ويتصرفون على نحو موهم ان لهم رسالة —

رسالة خير للشعب – وهذا اكثر مما استطعنا ان نفعل .

ولا ريب عندي في انه من المستطاع في نهاية الأمر إقامة علاقة متبادلة بين الشرق الأدنى والغرب . وليذكر أن الاسلام تاريخياً فرع من الديانة الاسرائيلية والمسيحية، وانه قد نال حظاً من التراث الاغريقي – الروماني وتقاليدهما [١] . والذي اضفناه الى ميراثنا الفلسفي كان في الغالب آلياً وصناعياً . ومضافاً الى ذلك نقول إن التمييز بين الشرق الأدنى والغرب من القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر ، كان مصطنعاً اكثر منه حقيقياً . فقد كان لشعوب الغرب وشعوب الشرق الأدنى إلى مستهل القرن السادس عشر نظر واحد إلى الحياة ، وفلسفة واحدة في الحياة ، واتجاه واحد وتخيل واحد . ولم يقع الافتراق إلا بعد ذلك القرن، فسلك الغرب سبيل العلم والاختبار ، وظل الشرق راكداً . وأضحت عجلة الآلة البخارية في القطار رمزاً إلى الغرب في حركته

---

(١) يختلف الاسلام اختلافاً جوهرياً في عقائده وتشاريعه ونظمه عن كلتا الديانتين الاسرائيليةوالمسيحية في صورتيها المعروفتين الآن، بل في صورتيها اللتين كانتا في عهد محمد عليه الصلاة والسلام . صحيح ان القرآن قد ذكر في اكثر من موضع انه فيما يقرره من عقائد قد جاء مصدقاً لما بين يديه من التوراة والانجيل. ولكن القرآن يقصد التوراة والانجيل في صورتها الاولى قبل ان يدخلها التحريف، ويقرر ان هذه الصورة قد بدلت وغيرت وحرفت عن مواضعها وطمست جميع معالمها فيما يسمى الآن بالديانتين اليهودية والمسيحية . فلا يستقيم مع ذلك ما زعمه المؤلف من انشعاب الاسلام عن الديانتين الاسرائيلية والمسيحية .

اما التراث الاغريقي – الروماني فلم يكن له اي اثر في الدين الاسلامي ، وان كان المسلمون قد افادوا منه في ثقافتهم وعلومهم وفلسفاتهم .

وعجلة المغزل أو عجلة مصنع الفخار رمزاً الى الشرق في حركته ، ولكنه في هذه الحركة يدور حول نفسه ويظل مقيماً في مكانه . ولا يجوز ان نلوم شعوب الشرق؛ فقد كان اهتمامهم الأول منصرفاً إلى الابقاء على انفسهم في وجه نكبات الانسان والطبيعة . كان لسان حالهم : احتفظ بما في يدك ، وان استطعت ان تحتفظ به فيجوز ان تنجوَ بنفسك . وكيف يستطيع المرء ان يتقدم في هذه الظروف ؟ وكيف يستطيع ان يتغير ؟ اما الغرب فلم يواجه هذا الوضع . ولذلك كانت حركة الغرب الى الأمام ، وحركة الشرق حول نفسه .

وفي نهاية القرن الثامن عشر ، وهو الزمن الذي ابتدأت الحديث عنه . اخذ كلا السبيلين يدنو من الآخر . وقد عاش في لبنان الشاعر شارل قرم ، والشاعر سعيد عقل ، والمحامي يوسف السودا ، والأديب هكتور خلاط الذين ظلوا يعلنون سنوات ان الثقافة اللبنانية لا تنتمي إلى آسيا ، بل لا تنتمي إلى العالم العربي ، وانما هي جزء من ثقافة الأبيض المتوسط . وقد أثاروا شبح الفينيقية ، كما أثار سلامة موسى شبح القبطية ، المصرية القديمة ، في مصر . على انه لم يحدث إلا سنة ١٩٣٨ ان ظهر مسلم مشهور — واولئك كانوا جميعاً مسيحيين — وأديب ممتاز هو طه حسين وزير معارف مصر الآن ، ونشر كتاب « مستقبل الثقافة في مصر » موضحاً ان الثقافة المصرية ليست جزءاً من الثقافة الآسيوية ، بل جزءاً من ثقافة الأبيض المتوسط .

ومنذ ذلك الحين لاحظت عدداً كبيراً من المقالات بقلم باحثين مصريين يعلنون فيها : « إننا لنشعر بألفة حين نجتمع بانكليزي او فرنسي او اميركي اكثر من الألفة التي نشعر بها حين نجتمع بهندي أو صيني او ياباني » . وعبارة « الدول الآسيوية والعربيـــة » التي تشيع في مناقشات الامم المتحدة هي لغو . فالدول العربية ليست جزءاً من آسيا ، وهذا لا يمس ثقافة آسيا والهند والصين بحال من الأحوال . فالدول العربية — تلك الدول التي نبحث شؤونها هـذا الصباح — كانت في جميع أدوارها التاريخية تقريباً ، عدا مراحل قصيرة جداً ، ضمن الحدود الثقافية الاوربية . والآن على الغرب ان يقنع تلك الدول التي ترغب في توطيد التفاهم مع الغرب انهـــا تنتسب إلى تلك الثقافة ، تنتسب اليها على الدوام .

نظرة في المظاهر الروحية والاخلاقية للاتجاهات الحديثة في الاسلام

بقلم : بايرد دودج
الرئيس السابق للجامعة الاميركية في بيروت

●

إن أيسر سبيل لأن يفهم الاميركيون مشاكل الاسلام هو ان يدركوا ان تلك المشاكل تشبه مشاكلهم الى حد كبير . فالاسلام في مواجهته العلم والتجدد لا تختلف قصته عن قصة المسيحية في مواجهتها التجدد والعلم . على ان هناك بعض الفروق ، احدها ان القرآن في نظر اهل السنة هو كلام الله الأزلي أوحي به كلمة كلمة ، وهو ، بذلك ، الأساس الذي لا يناقش للعقيدة والسلوك . وثانيها ان القرآن — خلافاً للعهد الجديد — وسنة النبي يؤكدان تقاليد وسنناً محددة لم تظهر في المسيحية إلا بعد حياة المسيح بزمن ، حين انتظم امر الكنائس الكبيرة . ولهذا السبب كانت الصعوبة في ان يتجدد الاسلام ، اكبر من الصعوبة التي

يجدها هذا النوع المألوف من المسيحية البروتستانتية .

منذ سنوات جاء فلكي من مكة الى بيروت ، وكان رجلاً محافظاً ذا لحية طويلة وثوب فضفاض وعمامة . وفيما كان يتحدث الى يوليوس آرثر براون ، استاذ الفلك ، ذكر انه لا توجد نجوم سيارة حول المشتري . وفي المساء بعد ان نظر الى نجوم مختلفة بالمجهر – التلسكوب – ادار الاستاذ براون الآلة على المشتري . ونظر الرجل المسن بالمجهر فشاهد بالضرورة النجوم السيارة التابعة للمشتري . وعندئذ التفت وهو مغتم الى الاستاذ براون وقال له : « إن دراساتي التي قمت بها خلال ثلاثين عاماً في مكة قد انهارت بهذه النظرة الواحدة ! » .

وصعوبة اخرى مردها الى القانون – الشريعة . ذهب صديق لي هذا الصيف الى جدة ليدخل الى البلاد تجارة الكوكا كولا . ويمكنك ان تتحدث عن الريحان في جلعاد، اما الكوكا كولا ، في البلاد العربية السعودية حيث الخمر محرمة، فأعظم هدية يمكن ان يقدمها إنسان . بيد ان صديقي ذكر انه لا بد لادخال تجارة الكوكا كولا الى العربية السعودية من ان يحمل الحكومة على سن قانون للشركات . ونصُّ القرآن لم يشر بالطبع الى الشركات الحديثة [1] . وقد اضطر الأتراك ان يغيروا قوانينهم كلية لتنهض

---

(١) وضع الفقه الاسلامي للشركات الانتاجية وغيرها قواعد لا تتعارض في جملتها مع ما يسير عليه تنظيم الشركات في العصر الحاضر .

هذا ، ويلاحظ ان القانون الاسلامي ليس مستمداً من القرآن وحده بل

التجارة على قواعد حديثة . وكذلك الحال في بلاد اخرى ، كمصر مثلا ، فقد تغيرت القوانين جوهرياً لكي تتيسر الأعمال الحديثة . على ان هناك صعوبة اخرى تتعلق بتحريم القرآن الربا ، اذ لا بد من ان تحصل المصارف وشركات التأمين الفائدة [٢] لكي تنهض بالعمل .

ليس شيء أجمل في المجتمع نصف البدوي لعهد النبي محمد ، من ان ينزل الجمالون عن جمالهم ويؤدوا الصلاة مجتمعين . اما اليوم فكيف يستطيع صراف او سائق سيارة الأجرة او شرطي تنظيم المرور، ان يؤدي الصلوات الخمس في اليوم في القاهرة او استانبول [٣] ؟ والمشكلة نفسها تبدو في رمضان . فليس من العسير

هو مستمد كذلك من السنة (قول النبي وعمله وإقراره) والإجماع والقياس . بل ان الاحكام المستمدة من القرآن قليلة جداً إذا قيست بمجموعة الاحكام الضخمة المستمدة من المصادر الاخرى .

(٢) ليست جميع انواع الفائدة التي تحصلها المصارف والشركات داخلة في الربا الذي حرمه الاسلام . — على انه اذا ثبت ان هناك ضرورة اقتصادية لهذا النوع من التعامل فان الاسلام يجيزه عملاً بمبدأ « الضرورات تبيح المحظورات ». (راجع رسالة الدكتور محمد عبدالله دراز في الربا) .

(٣) لا يتطلب أداء اطول صلاة من الصلوات الخمس اكثر من خمس دقائق، ويبيح الاسلام أداءها في اي مكان. وفي هذا من التيسير ما يجعل امر الصلاة ميسوراً لجميع الناس . على انه ليس من اللازم أداء الصلاة بمجرد حلول وقتها ، بل تعتبر إقامتها أداء لها في اثناء فترة طويلة بعد ذلك . (ففترة الصبح تمتد نحو ساعتين ، وفترة كل من الظهر والعصر نحو ثلاث ساعات ، وفترة المغرب نحو ساعة ، وفترة العشاء نحو سبع ساعات) . بل انه ليجوز تأخيرها عن هذه الفترة المحددة لها اذا دعت الى ذلك ضرورة . وتسمى إقامتها بعد ذلك قضاء لها .

ان تصوم من شروق الشمس [1] الى غروبها في الصحراء ان استطعت ان ترجىء سفرك او عملك الى الليل البارد . ولكن اذا كنت مثلاً سائق عربة الترام في احد ايام شهر آب الحار في مدينة كالقاهرة فكيف يمكنك ان تصبر على الظمأ والجوع من شروق الشمس إلى غروبها وتنهض باعباء عملك في الوقت نفسه[2]؟ وفي هذه الايام يذهب الشبان المسلمون إلى الحفلات التي يقيمها رجال السلك السياسي حيث تجتمع شخصيات من أرقى طبقات العالم وأدمثها اخلاقاً ويشاهدونهم يتناولون الخمر وشطائر لحم الخنزير التي نص القرآن على تحريمها . فهل تعجب في هذه الحالة إن وقع هؤلاء الشبان في حيرة ؟ والواقع ان كثيرين منهم لا يعرفون ما الصواب وما الخطأ ، وما الصحيح وما الزائف ، وما الجائز وما الممنوع[3]. وبمعنى آخر : إن التجدد يحمل الاجيال الجديدة من المسلمين على إعادة تقويم الدين وعلى ان يفكروا بانفسهم في المشاكل الاسلامية على أسس جديدة .

---

(١) يبدأ الصيام من طلوع الفجر ، اي قبل طلوع الشمس بنحو ساعتين .

(٢) أباح الاسلام الفطر للمرضع والحامل والشيخ الهرم والمسافر والمريض ومن يخاف ان يصيبه من جراء الصوم مرض او ضرر او تعطيل لعمل ضروري، والى ذلك يشير القرآن إذ يقول : « فمن كان منكم مريضاً او على سفر فعدة من ايام أخر ، يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » .

(٣) ان الحلال في الاسلام بين والحرام بين ، ولا تكمل اخلاق المسلم إلا باجتنابه جميع ما حرمه دينه، والخمر ولحم الخنزير محرمان قطعا في الدين الاسلامي وليس في امتناع المسلم في مثل هذه الحفلات عن تناولها ما يسيء الى نظام الحفلة او الى احد من المشتركين فيها .

التفكير العقلي في الاسلام

اود ان اتحدث عن بعض مظاهر رد الفعل المهمة التي تقع اليوم في الاسلام، لا من الناحية الاقتصادية ولا السياسية بل من الناحية الدينية المحض ؛ فهناك أولاً رد الفعل القديم الذي كان يقع في ايام اجدادنا ، ولا سيما في مصر والهند ، لاثارة التفكير العقلي في الاسلام ، لمحاولة التوفيق بينه وبين الافكار الحديثة ، دون أدنى اهمال لسلطان القرآن والحديث أو اي نظام من أنظمة الدين القديمة . وقد بذلت فرقة الأحمدية وجامعة عليكرة ، جهداً كبيراً لاحداث تجديد في الاسلام دون إهمال للقواعد الأساسية . وقبل نحو قرن ونصف قرن بذل الشيخ محمد عبده جهداً طيباً في هذا المضمار ؛ وقد حدثني عنه أحد تلاميذه وهو عالم فاضل في بيروت ، وقد كانت نظرية داروين في التطور مشكلة جابهها علماء المسلمين . ولكن محمد عبده تلا الآية الثلاثين من السورة الثانية في القرآن : « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدس لك قال اني اعلم ما لا تعلمون » واشار الى ان الانسان هو خليفة الحيوان ، ولذلك قال الله في القرآن انه سيجعله خليفة في الأرض .

وبعد ذاك بقليل شاعت نظرية باستور في الجراثيم . وهنا ايضاً اعاد محمد عبده تفسير إحدى السور المشهورة في القرآن ، ولعلكم تذكرون الآية التي تقصّ غزو الأحباش لمكة في عهد ولادة النبي

وهزيمتهم في وقعة الفيل ، فان الجنود الغزاة ردوا على اعقابهم باحدى نكبات الطبيعة العجيبة . والقرآن يصفها كما يلي في السورة الخامسة بعد المئة : « الم يجعل كيدهم في تضليل . وارسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل » . وقال محمد عبده : تلك كانت الجراثيم . وحل الوباء ، وصدقت نظرية باستور .

وتنص الآية الخامسة والسبعون بعد المئتين في السورة الثانية على تحريم الرّبا ، ولكنها تحلل البيع ، وذلك يصح ان يجعل قاعدة طيبة للسماح لشركات التأمين والمصارف ان تستوفي فائدة معقولة دون ان يسمح للمرابين ان يضايقوا الفقير. وقبل نحو سبع سنوات وجد الشيخ المراغي ، الذي كان احد شيوخ الازهر الجليلين في مصر ، حكماً شرعياً يرجع الى القرون الوسطى فأعاد تفسيره كي يفتي بجواز تحديد النسل ومنع الحمل في الاسلام .

وقد ذهب بعض الباحثين الى ابعد من ذلك ، وغالى على نحو يشبه غلو المعتزلة المتقدمين في القرون الوسطى ، إذ اخذ احدى آيات السورة الثالثة والاربعين : « إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » واستنتج من قوله « إنا جعلناه قرآناً عربياً » ان القرآن « مجعول » وليس هو كلام الله الازلي ، ولا لفظ الله . ويشير هذا النص كذلك الى ان القرآن أخبر بقيام حركات اصلاحية متعددة في السورة الرابعة : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم الا تعدلوا فواحدة » . ويستطيع أحد مفسري القرآن المجددين ان يقول : وبما أنه لا احد يستطيع ان

يعدل بين اربع زوجات في هذه الايام العصيبة ذات الازمات الاقتصادية فهذا دليل بيّن على ان النبي والقرآن قبله توقّعا ان يتزوج المؤمنون واحدة [١] .

وجاء في السورة الثلاثين : « ومن آياته انه خلق لكم من انفسكم ازواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . وقد يتحدث المسيحيون عن حياة البيت المسيحي الجميلة ؛ ولكن أيوجد اجمل من هذه الآية القرآنية للدلالة على ان الله والنبي قد توقعا حياة بيتية جميلة، وتوجد نصوص كثيرة تتعلق بتحرير العبيد. فالسورة التسعون تتحدث عن طريقي الحياة — وان طريق العقبة هي الطريق الطيبة . « وما ادراك ما العقبة ؟ فك رقبة » . لا شك في ان وابر فورس وابراهيم لنكولن لا يمكن ان يكونا فعلا افضل من هذا .

ولذلك كان اول رد فعل اود ان اذكره متمثلاً في الجيل الماضي، والى حد ما في الجيل الحاضر ، هو اعادة تفسير القرآن وحديث النبي لاستعمالهما أساساً للتجديد ، كيلا يؤدي هذا التجديد الى هدم الدين .

---

(١) ليس العدل المطلوب في القرآن هو العدل في الحب او في الميل لأن هذا غير مستطاع (والى هذا يشير القرآن اذ يقول : « ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ») وانما العدل المطلوب هو العدل في الانفاق وفي المبيت وما الى ذلك . وهذه امور يستطاع العدل فيها . فاذا كانت ظروف احد الافراد لا تمكنه من العدل في هذه الامور او لا تمكنه من الانفاق على اكثر من واحدة ، لا يجوز له التزوج باكثر من واحدة .

الاحتجاج بالاسلام

ان اكثر الشبان المسلمين اليوم غير متفقهين في القرآن ، ولذا سلكوا سبيلاً لا يمت اليـــه بصلة ـ اذ اتخذوا الاسلام رمزاً الى الولاء السياسي . وهـــذا بيّن على وجه خاص في البلاد التي تقع قيـد الحكم الاجنبي . فبلاد كتركيا التي ناضلت الاجنبي وطردته استطاعت ان تنبذ اللباس القديم والعادات والطقوس القديمة وان تصبح بلداً حديثا حتى في القانون، لانهـا أصبحت لاتعاني مركب النقص. ولم يبق هناك سبب ليغيظ الاتراكُ الاجانبَ او يستعملوا انظمتهم الخاصة رمزاً الى كره الاجنبي . ولكن الامر مختلف في بلاد اخرى . فعدد كبير من طلاب المدارس يصومون رمضان لا عن عقيـــدة دينية بل لـكي يعلنوا انهم مسلمون متمسكون بدينهم وانهم يرفضون ان يعتـدي ايمـــا أجنبي عليهم . في البلاد التي تعاني شيئا من النفـــوذ الاستعماري ميل عام الى لبس الطربوش بـــدلاً من لباس الرأس الاجنبي رمزاً الى ان لابسي الطربوش هم مـع جمهور مواطنيهم ، وأنهم يأبون ان يظن الناس انهم افرنج او اجانب . وقد التزمت البلاد، التي كانت واقعة سابقا رهن الانتداب البريطاني والفرنسي، الشريعة القديمة ، في حين ان تركيا التي تحررت من التدخل الاجنبي الغتها . وفي بلد كلبنان حيث الطوائف المسيحية قوية ، نجد الاسلام عنصراً سياسيا مهما لجمع شمل المسلمين والمحافظة على مركزهم .

واكثر الناس مغالاة في استعمال الاسلام وسيلة ، هم الاخوان

المسلمون . فقد نحوا ، كما اظن ، نحو السنية المحافظة ونحو الافكار العتيقة في الاسلام نكاية ، في الدرجة الاولى ، بالاستعمار والآراء المستوردة من الخارج . واخذت تركيا تلطف ما ادخله اتاتورك من نشاط مخالف للدين مخالفة قوية او على الاصح لا ديني. والعودة الى شيء من المحافظة ، الى الجو الديني ، ترجع الى الشعور بان البلاد لا تستطيع ان تتقدم دون ان يوجه الشباب الى مزيد من العناية بالدين . وهذا نفس ما حدث في ايران. لا ريب في ان الشاه رضا اراد ان يحطم كثيراً من الاغلال الدينية كما فعل هنري الثامن ، ولكن الايرانيين في حكم ابنه رأوا انه يجب عليهم ان يعودوا الى الوراء وان تزداد عنايتهم بالدين لكي يقاوموا الشيوعية وغيرها من العناصر الاجنبية . واستعمال الاسلام على هذا النحو وسيلة ، بوصفه حزبا سياسيا ، عودة الى التقاليد القديمة ، او وقاية من التهديد ، هو اتجاه قوي — اهم كثيراً من جنوح العلماء الى تطبيق التفكير العقلي على العقيدة الاسلامية .

وضع الدين في المؤخرة

وهناك رد فعل سياسي له دلالة اكبر من ذلك، وهو مألوف ايضاً لدى المسيحية : ذلك هو وضع الدين في المؤخرة. لقد بذل اتاتورك جهداً كبيراً في تشجيع عدم المبالاة والمادية باقامة نظام مدرسي حديث وعدد من الجامعات الكبيرة التي لا تعلم الدين ، وبالقضاء على الدراويش واقفال اياصوفيا ، وصرف عدد كبير من رجال المساجد، القى في روع الناس ان الدين شيء يرجع الى الماضي، وانهم

سيتجددون وسيستندون الى شيء غير الدين . وكذلك كان اتجاه المدرسة الحديثة والنظام الجامعي في مصر[1] والعراق وايران نحو العلم والتجدد الدقيق . فقد نحي الدين باعتباره شيئاً عاطفياً وشعورياً لا يصلح، بعد، لأن يكون قوام الحياة كما كان في القديم[2]. وعدد كبير من طلابنا المسلمين ما عادوا يصلّون. وقد حاولنا ان نشجع الطلاب المسلمين في مدرستنا الابتدائية على أن يؤموا جامعاً قريباً في الساعة الحادية عشرة من ايام الجُمع باعفائهم من واجباتهم المدرسية . ورجونا الزعماء المسلمين في بيروت ان يخصصوا خطيباً قديراً للجامع لكي يجذب الطلاب. ولكن الطلاب كانوا يرفضون الذهاب. وفي أحد الأيام زرت وجيهاً ممتازاً من اهل بيروت في شهر رمضان ، فقدم فنجانين من القهوة واحداً لي وواحداً له ، فذكرت له اني لا ارغب في إغرائه بشرب القهوة في وسط رمضان . وفي تلك اللحظة مرّت زوجته التي كانت بدينة من خلف الدار الى غرفة خلفية، فأجابني الوجيه: اني ادع السيدات يصمن رمضان ، ففيهن حاجة اليه لكي يلائمهن الزي الباريسي، اما انا فسأشرب معك القهوة » .

ويلوح لي ان هوليوود قد أثرت في الجيل الحاضر من المسلمين اكثر من تأثير مدارسهم الدينية .

---

(١) لم يكن للنظام الجامعي في مصر اي اتجاه معارض للدين .

(٢) هذا غير صحيح فيما يتعلق بمصر، فالنظام الجامعي في مصر لم ينح الدين ، ولم يقم على اسس تتعارض معه .

ان تحريم القرآن الخمر والميسر والزنى وما إلى ذلك من الموبقات قد أهمل كما أهمل كثير من المسيحيين المحرمات المماثلة التي نصت عليها كتبهم المقدسة .

واليوم قد اصبحت القومية ذات الصبغة المادية عنصراً قويا في الفكر الاسلامي والمجتمع ، وهذا يؤدي بالطبع إلى مناهضة فكرة الوحدة الاسلامية او الخلافة وكون الاسلام اخوة منظمة. فالقومية قد حلت محل المظهر الديني للوحدة الاسلامية الى حد كبير . وغني عن البيان ان الشباب المسلمين الذين لا يبالون بالاسلام باعتباره نظاما عظيما هم الذين يغلب عليهم اعتناق الشيوعية. وعلاقة الاسلام بالشيوعية لم تحلل بعد تحليلا شافيا . على انه يمكن ان يقال بكل تأكيد انه من اليسير ان توجد في الاسلام، وكذلك في الكتب المسيحية المقدسة ، قاعدة للشيوعية باعتبارها فلسفة مثالية . وقد قال النبي في الحديث : « الانسان اخو الانسان أحب ام كره »[1]. وفكرة المساواة قوية جداً في الاسلام ويبدو لي ان اكبر عائق للشيوعية لدى مسلمي الشرق الاوسط ليس دينيا . ان اكبر عائق هو الاقطاعية التي يتمتع بها كثير من الملاك . ومن جهة اخرى فان الشباب المسلم ، سواء أكان ضد الدين ام كان لا دينيا ، اكثر عناية بالمسائل القومية المباشرة منه

(١) لا اذكر حديثاً بهذا اللفظ ، والحديث القريب من ذلك هو قوله عليه السلام « المؤمن أخو المؤمن ، لا يظلمه ولا يحسده ... كل المؤمن على المؤمن حرام : دمه وماله وعرضه »

بأية حركة اسلامية كبيرة ، وقد يشعر بميل اصيل جداً الى الاشتراك مع الجماعات الاسلامية التي تتألف من ثلاثين إلى خمسين مليون نسمة ، والتي تعيش في الاتحاد السوفياتي ، احتجاجا على الاحوال التي توجد في بلاده .

ورد الفعل هذا لدى الأجيال الناهضة من المسلمين مؤسف للغاية ، فان كثيرين منهم ينبذون دينهم وفضائلهم او ولاءهم لعقائدهم . وهم يعيشون عيشة إباحية – يشربون الخمر مع تحريم القرآن إياه ، ويلعبون الميسر مع تحريمه ايضا ، ويراهنون بالمال الكثير في سباق الخيل ، ويلهون بالمراقص ودور الدعارة ، ويتعاطون الأعمال التجارية غير المشروعة ، ويقبلون على الربح الحرام وبعض الجرائم . وإن قرأت إحدى صحف واشنطن تجد انه لا داعي لاجتيازك البحر الابيض المتوسط بحثا عن مشاكل مماثلة لما تقرأ فيها . والحقيقة أن العالم الاسلامي يواجه هذه الأوضاع ، وإنه من أعوص المشاكل في الحياة الحاضرة ان يعرف كيف يعالجها .

والواقع أن الاسلام كان حركة إصلاحية ، وأظن ان معظم الامريكيين لا يدركون هذا المقدار الكبير من الاصلاح الذي كان عليه إسلام محمد وأبي بكر . بيد أن هذه الحقيقة ليست رادعة لكثير من الشبان المسلمين عن الخروج عليه خروجا كليا بقدر ما أخفقت بعض العقائد الطيبة في كنيستنا في ردع الشبان المسيحيين عن أن يصبحوا ضد الدين وماديين .

اعادة تفسير الاسلام

وردّا الفعل الاخيران اللذان سأذكرهما ، بنشاءان – إعادة تفسير الاسلام ، وتطبيقه ، وهنا ايضاً تشابه عظيم بين الاسلام والمسيحية ، فنحن – المسيحيين – لا نقرأ سفر اللاويين بتاتاً ، او على الاقل في صلواتنا العامة . ونحن لا نقرأ نصوصاً من رسائل بولس عن تقديم الطعام الى الاصنام او الختان او تغطية رؤوس النساء في الصلوات . وهذا هو ما يحدث اليوم مع المسلمين والقرآن . فهم لا يُعنون بقراءة النصوص الطويلة والاقسام المتعلقة بالجهاد او الحرب الديني ، وغير ذلك مما يعلمون انها لا تلائم الحياة الحديثة. ونحن المسيحيين مع اهمالنا سفر اللاويين وبعض النصوص الواردة في رسائل بولس، نُعنَى عناية جدية بالموعظة التي القاها المسيح على الجبل ، والقاعدة الذهبية وبعض النصوص الجميلة التي تتعلق بالحياة الحديثة . والشبان المسلمون يفعلون ما نفعل تماماً بالقرآن والحديث . خذ موضوعاً كالصلح . فالسورة التاسعة والاربعون (سورة الحجرات ، الآية التاسعة) تقول : « انما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين اخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » . وتقول السورة الرابعة : « لا خير في كثير من نجواهم الا من امر بصدقة او معروف او اصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه اجراً عظيما » . ويستشهد الشيخ محمد نمر (نمور ؟) الخطيب في عدد حديث من اعداد المجلة الاسلامية islamic Review بحديث لم أره وارداً من قبل وهو : « أأنبئكم بما

هو خير من الصوم والصلاة والزكاة : الصلح بين الناس » . فاذا كنت تختار نصوصاً كهذا النص فانك تستطيع ان تبرز الناحية البنّاءة من الدين ابرازاً عظيما ، الدين باعتباره وسيلة لايجاد السلم ، لا في الحياة الخاصة فحسب ، بل في الحياة العامة كذلك .

وربما كان الكثيرون منكم يذكرون آية من اشهر آيات السورة الثانية ، وهي « ليس البرّ ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب واقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس اولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون » . وأشهر من ذلك حديث النبي : « الخلق عيال الله واحبهم اليه انفعهم لعياله » . والشبان الذين يفكرون تفكيراً جدياً اليوم ينزعون الى اختيار امثال هذه النصوص ويستعملونها لكي يكوّنوا تفسيراً جديداً للدين — تفسيراً روحياً محضاً لا يمت الى اية عقيدة الا الاسلام نفسه .

تطبيق الاسلام

هناك كثير من الشبان المسلمين في المدن الكبيرة يشربون الخمر ، ويقرأون الصحف اكثر مما يتلون القرآن ، ولا يعنون عناية ظاهرة بالنظم القديمة ، ولكنهم يساهمون في الاعمال الخيرية . واعمال

الاحسان الخاصة ليست جديدة في الاسلام ، ولكن الاعمال الخيرية المنظمة ذات الطابع الحديث جديدة . والنبي يقـــول : « أتحب خالقك ؟ حب اخاك الانسان اولاً »[1] . وهل هناك قاعدة احسن من هذه القاعدة لعبادة الله عن طريق الخدمة الاجتماعية ، واعمـال الخير وما الى ذلك من اعمال البرّ بالناس؟ ومثال ذلك جمعية المقاصد الخيرية ، وهي مؤسسة خيرية في بيروت، لها مدرسة ثانوية للاولاد واكثر من خمسين مدرسة ابتدائية في مدن لبنان وقراه على السواء ومستشفى ممتاز ، وعيادة ، ودار للايتام ، وحديقة للاطفال. وهي الآن تسعى لانشاء مدرسة للتجارة[2] . وهذه الخدمات الاجتماعية تعويض عن العقائد التي يمكن ان يقف منها الاعضـاء موقف عدم المبالاة . وفي مصر تقل عناية الجيل الجديد بالازهر والانظمـــة القديمـــة ، ومع ذلك اقاموا وزارة للشؤون الاجتماعية ، وبدأوا يضعون مشروع خمس سنوات لمكافحة المرض والفقر والجهل. وربما كان هذا عملاً لا شعورياً بالكلية لاعـــادة تفسير ما يشعرون انه واجبهم نحو الله . والحكومة العراقية ، كما تعلمون ، قد قررت حديثاً ان تستغل دخلها من عائدات النفط في استصلاح الاراضي وتأجيرها مخصصة لكل اسرة فقيرة من الفلاحـين تود ان تعيش في مزرعة طيبة باثنين وستين فداناً ونصف الفدان[3] . وربما كان هذا

(١) لا يرد الكاتب الأحاديث الى مراجعها ولا يذكر اسانيدها . ولذلك ترجمنا اقواله فحسب (المترجم) .

(٢) أنشئت هذه المدرسة منذ سنتين (المترجم)

(٣) يبدو ان هذا الرقم مبالغ فيه ، ولعل سبب ذلك اختلاف المقاييس . (المترجم)

العمل ايضاً تفسيراً لا شعورياً للواجب الديني بشكل خدمة اجتماعية. وتركيا وايران ومصر وسوريا ولبنان جميعاً ينظمون تشريعاً خاصاً بالعمل . والملك ابن السعود وشيخ الكويت يبذلان جهداً جدياً لينفقا كثيراً من الاموال التي تأتيهما من النفط على الري وحفر الآبار وتحسين وسائل النقل والتعليم والصحة العامة — امثال هذه المشاريع التي يشعران انها تنهض شعبيهما . وهكذا يتجه الاسلام الحديث اتجاهاً بناء نحو اعمال الاحسان من الناحية الشخصية والنواحي العامة . وربما كان تغيير مركز المرأة الذي اشار اليه الدكتور حتي هو اهم مظاهر رد الفعل البنّاء .

والاصلاح الذي يجري لالغاء النخاسة والمخدرات والبغاء التجاري وامثالها من المساوىء الاجتماعية ، يجري بالنشاط نفسه الذي كان يجري قبل خمسين عاماً في الدفاع عن منظمات العصور الوسطى، وبتعبير آخر : ان الاسلام كالمسيحية قد مرّ في دور تطوري محتوم تقريباً في عهد الجيلين الاخيرين ، وهو الآن في ذروة هذه الحركة، محاولاً ان يوفق بينه وبين العلم والآراء الحديثة وجميع العوامل المدهشة في العالم الحديث .

لقد وجدت قبل جيل هوة واسعة بين المسيحية والاسلام . اما في الوقت الحاضر فمما يسترعي النظر ان ترى الشبان المسلمين والمسيحيين يغضون النظر عن انظمتهم القديمة الموروثة ويتطلعون

الى المستقبل مواجهين مشاكل متشابهة تقريباً . وإن تغلب العمل السلبي في الاسلام – أو في المسيحية – وانهار الاسلام ، وطغت المادية والتطرف ، وعمّت الشيوعية، متخللة ذلك كله ، فستكون النتيجة مأساة كبرى للعالم .

ونحن باعتبارنا مسيحيين، لا يجوز ان نرغب في انهيار الاسلام. لقد ارتأى الصليبيون والارساليات التبشيرية القديمة ان على المسلمين ان يقبلوا آراءهم، متوهمين ان هؤلاء المسلمين يعيشون في ظلام دامس اما اليوم فان الرأي مختلف عن ذلك . والمسيحيون الذين يعيشون في الشرق الاوسط يرون انهم يواجهون مشاكل تكتنفهم من كل جانب بحيث لا ينظرون الى المسلمين شزراً . بل على العكس يريدون ان يضعوا ايديهم بايدي المسلمين ليتمكنوا من مواجهة هذه المشاكل متعاونين . وربما يستطيعون ، بجهودهم المشتركة ، وبروح التعاون الاخوي ، ان يصلوا الى حل لبعض المشاكل العويصة .

وهكذا اودّ ان استودعكم هذه الفكرة ، وهي ان على الامريكيين ، أموظفين كانوا ام رجال اعمال ام رجال ثقافة، ان يبذلوا جهدهم في تشجيع تلك الفرقة من المسلمين التي تعمل للبناء، وفي مؤازرتها كي ينجو الاسلام من الهلاك الذي تعرضه له المادية والقوة الثورية . يجب علينا ان نبذل كل ما في وسعنا في تشجيع الجيل الناهض على جعل المشاريع الخيرية والاصلاح الاجتماعي بديلا حديثا للنظم القديمة التي عرفها الاسلام في القرون الوسطى .

ولئن كافح المسلمون في خدمة الله ، عن طريق العدالة الاجتماعية، والفضائل الانسانية ، إنهم ولا شك مولّون وجوههم شطر الله ليجدوا منه القوة الروحية التي يحتاجون اليها والتي نحتاج اليها كلنا اجمعين لمواجهة المشاكل الصعبة في الحياة الحديثة .

الاسلام بواجه العلمانية الغربية

(أ) رد الفعل الثوري

بقلم : ويلفرد كانتول سمث
دائرة مقابلة الاديان ، جامعة مكجيل ، كندا

•

أسألكم ان تأتوا معي إلى مشهد يرجع إلى مطلع سنة ١٨٨٢. فها هو ذا طلعة باشا يقيم حفلة في بيته في القاهرة ، يجتمع فيها عدد من المتحمسين للحركة الثورية الناشئة . منهم عرابي باشا الكولونل في الجيش ووزير الحربية ، ومحمد عبده العالم الأديب الفقيه ، وكلاهما يشغل مركزاً كبيراً في مصر ، ويُعنى عناية خاصة بيقظة البلاد النشيطة .

وقد زاد الاحساس العنيف منذ اشهر بوجوب القيام بعمل متطرف لادخال النظم الديموقراطية إلى مصر . وكان محمد عبده المفكر يُعتبر الروح الموجهة ؛ ووالد هذه الحركة تقريباً . اما عرابي باشا فكان رأس الرمح . على ان الاثنين كانا مختلفين في هذه

المناسبة ؛ فمحمد عبده يمثل نظر من يؤمن بالتدرج : بأن الوقت لم يحن بعد للتوسل بالعنف ، وأن العنف ، على أي حال ، لا يسمح بالسير البطيء اللازم في سبيل إعادة وضع منهاج كامل للبلاد ، وتنشئة جيل جديد من المصريين على مبادىء طيبة اصلاحية . اما عرابي باشا الثائر فلم يطق صبراً على ما يعتبره اساليب بطيئة . وهو مستعد إذا تأزمت الامور ان يقود ثورة مسلحة . وهكذا يمثل هذان الرجلان الموضوعين اللذين سيعالجهما الدكتور الزيات وانا بعد ظهر اليوم : محمد عبده القائد الداعي إلى التطور ، وعرابي باشا الثوري .

وبعد بضعة اشهر قام عرابي باشا بثورة مسلحة فعلاً ولكنه أخفق . وقبل مضي عام على ذلك ضرب البريطانيون الاسكندرية بالقنابل واحتلوا البلاد وبقوا فيها خمسين عاماً . على ان عرابي باشا لا يمثل الثورة الاسلامية تماماً ، لان اتجاهه الثوري ، كان ذا طابع إسلامي جزئياً . وقد عُرف بعدُ بعرابي « المصري » ، وكان وطنياً ، لا مسلماً ثائراً . أجل كانت حركته ذروة لاضطراب اسلامي ، ولكنها لم تكن اسلامية محضاً : فالطابع المصري كان عنصراً ذا اهمية مماثلة لأهمية الطابع الاسلامي ، ومنها انبثق الحزب الوطني وجريدته « اللواء » غير الدينية عن طريق عبد الله نديم ومصطفى كامل باشا .

وفي الوقت نفسه تقريباً وقعت ثورة المهدي في السودان . وكان محمد احمد الدنقلوي ، وهو ورع كثير الاحلام ولكنه

سوداني متحمس ، يجوب السودان داعياً إلى احياء الاسلام . وكان يؤمن ان السودان لن ينقذه من البؤس الذي اوقعه فيه مستغلوه إلا ظهور منقذ رباني من القوم انفسهم ، يقودهم بعون الله إلى حياة أطيب . وفي صيف ١٨٨١ أدخل في روعه فجأة انه هو القائد المنقذ . وهكذا قاد ثورة المهدي العنيفة في السودان زاعماً انه هو المهدي المنتظر ، موضع رجاء الراجين . وربما كان هنا ما نبحث عنه : الثورة الاسلامية الصرف حقاً . ومع ذلك فان ثورة المهدي لا تمثل تماماً رد الفعل الاسلامي للعلمانية الغربية ، إذ كانت ثورته في الدرجة الاولى في وجه البؤس والاستغلال الناتجين عن ظروف محلية من جهة وعن الاتراك من جهة اخرى .

لنعد إلى الوراء قليلاً إذن ، إلى تأثر آخر ، هو جمال الدين الأفغاني الذي يُعد من بعض الوجوه أهم شخصية اسلاميه في القرن التاسع عشر . كانت « الوحدة الاسلامية » مثله الأعلى ، وكان هو من دعاتها . ويبدو انه كان على صلة بكل ما يجري في العالم الاسلامي . وكان مصدر الالهام لكل من محمد عبده وعرابي باشا . وكانت له علاقة كذلك بثورة المهدي في السودان ، ان لم تكن تلك الثورة نتيجة نفوذه كما كانت الحركات في مصر . وقد ذهب مع ذلك ، الى لندن فوراً وحاول بنجاح كما يزعم بعضهم ان يؤثر في السياسة التي انتهجها البريطانيون فيما بعد نحو القضية السودانية . وحاول ، في نطاق اوسع ، ان يؤلف بين شطري العالم الاسلامي ،

السني والشيعي ، اللذين قورنا احياناً ، وإن كانت مقارنة غير تامة، بالشطرين الكاثوليكي والبروتستانتي في المسيحية . وهو نفسه كان سنياً وصوفياً معاً : سنياً فقيهاً متضلعاً في الدراسات الاسلامية القديمة ، وصوفياً اجتاز المراتب الصوفية ، وكان من اتباع الوحدة الاسلامية من الناحية الجغرافية ايضاً. فقد ولد إما في فارس وإما في افغانستان ، دون تحديد المكان على وجه الدقة . وتولى مدة رئاسة وزارة ايران ، وزار الهند ، وأبدى نشاطاً في بعض نواحي التجديد الاسلامي في القاهرة . وأدّى في استانبول دوراً مهماً في حركة الوحدة الاسلامية كما تصورها الخليفة. وزار كذلك باريس ، ولندن ، وبرلين ، وسانت بطرسبورج ، وربما الولايات المتحدة ايضاً . لقد كان في غاية النشاط . وقد أيقظ بهمته العالية وفصاحته الساحرة شعوب العالم الاسلامي في جميع الاقطار التي زارها واستثار الحماسة والنشاط في العالم الاسلامي .

لقد كان جمال الدين بلا شك ثورياً ، وكان مناهضاً للغرب . ولكنه لم يكن مفكراً عميقاً ولا شخصية مبدعة . اجل قد تولدت حركات كثيرة بفضل نشاطه الا أنه لم يكن عظيماً، كما ارى ، الى الحد الذي يصح ان يرجع اليه فضل وجود هذه الحركات . وارى ان جمال الدين كان منظماً لعناصر الثورة الاسلامية في القرن التاسع عشر لا موجدها . وكان لبلاغته وفصاحته المؤثرتين اصداء بعيدة في مستمعيه ، بيد انها كانت كامنة في نفوسهم ، وكانت مساهمته هو ان يبلورها وينظمها . لقد كان صاحب فطنة

وتنظيم وادارة من الطراز العالي ، ولكني اعتقد في هـذه الحالة ، وفي حالات كثيرة ، ان الاسلام نفسه ، هو الذي ولّد هـذه الاتجاهات الثورية ، وفي احيان كثيرة ، الاتجاهات التطورية . ولذا نحن مضطرون ان نعود الى الوراء لنبحث في الاسلام نفسه.

فما ردُّ الفعل الذي يمكن أن يحدثه الاسلام إزاء وضع كهذا الوضع القائم في العالم اليوم ؟

الجماعة الاسلامية مهددة

ان الورطة التي يعانيها الاسلام لا ترجع الى تحـدي التجدد لمجموع من الآراء بقدر ما ترجع الى تهديده الجماعة الاسلامية ذاتها.

هناك مسلكان للنظر في اي دين كان : فاما ان ننظر اليه من داخل واما ان ننظر اليه من خارج . ولا يتأتى الفهم الصحيح الا من المسلك الاول. على انا ،بوصفنا غير مسلمين، نقصر انفسنا ، على الاقل في هذه اللحظة ، على النظر من خارج . واذا نظرنا اليه من داخل نرى انه بدأ من يوم الخليفة ، ان لم يكن قبل ذلـك . واذا نظرنا اليه من خارج نرى انه بدأ في القرن السابع الميلادي . واذا نظر اليه من داخل فهو دين الله ؛ واذا نظر اليه من خارج فهـو دين المسلمين . واذا نظر اليه من خارج فلنلاحظ حقيقة بارزة ذات صلة ببحثنا — تلك هي علاقة الاسلام بالقوة والنجاح . فالقرون الثلاثة او الاربعـة الاولى للاسلام كانت قرون فتح وانتصار . وفاتحو شمالي افريقيا واسبانيا الى جبال البرنيس من جهة ، ووسط

آسيا من جهة ثانية ، أسسوا قانوناً جديداً ، ومجتمعاً جديداً وحضارة جديدة . وهذه الحقيقة قد صبغت الاسلام جميعه منذ ذلك الحين. وعلى العكس من ذلك كان أمر المسيحية،فقدانتشرت خلال قرون من الاضطهاد،من حيث هي دين عمال الامبراطورية الرومانية ، كما يمكن ان يقال . والصليب ، قلب المسيحية ، هو رمز الآلام . فالمسيحية هي دين الظفر الناتج عن الآلام ، دين الخلاص في وسط الهزيمة . وعلى النقيض من ذلك ، الاسلام ، فهو دين الظفر في النجاح ، دين الخلاص عن طريق الفتح والقوة الدنيوية .

ان اكثر الاديان تعلم ان الله قوة ورحمة معاً . وانه لمن الصعب جداً ان نوفق بين هاتين الصورتين ، لأن احداهما تميل الى التغلب على الاخرى . وقد لا نعدو الصواب اذا قلنا ان الاسلام حسب الفقه السني ، وكما جرى في الواقع اثناء القرون الاولى ، تغلب على الله فيه صورة القوة [1] . يضاف الى ذلك ان السنة الاولى للعصر الاسلامي ، السنة الاولى للهجرة ، ليست السنة التي ولد فيها محمد ، ولا حتى السنة التي بدأ فيها نزول الوحي عليه،

---

(١) هذا غير صحيح فالآيات القرآنية التي وصف فيها الله بالقوة لا تزيد عن الآيات التي وصف فيها بالرحمة ، بل انها على ما اعتقد تقل عنها كثيراً بل ان اول آية قرآنية قد وصفت الله تعالى بالرحمة فقط : « بسم الله الرحمن الرحيم » . وكثير من الآيات التي يوصف الله فيها بالقوة يليها مباشرة آيات اخرى يوصف فيها بالرحمة او العكس : « نبيء عبادي اني انا الغفور الرحيم . وان عذابي هو العذاب الأليم » مع سبق الرحمة للقوة .

بل السنة التي هاجر فيها الى المدينة واسس دولة . فالاسلام بدأ في التاريخ ، حين ظفر بالقوة متمثلا بالجماعة الاسلامية ، وبقوانينها الخاصة وسيادتها الخاصة .

ويلوح لي كذلك عند درس الدين الاسلامي ان التعبير الرئيسي عن عقيدته كائن في القانون ، الشريعة ، وهذا يجعله هنا ايضاً مختلفاً عن المسيحية اختلافاً اساسياً . والعقيدة في نظر جميع المتدينين هي امر لا يمكن ان يعبر عنه لا بالالفاظ ولا باية وسيلة اخرى . بيد ان المسيحيين على العموم حاولوا ان يعبروا عن عقيدتهم في الدرجة الاولى بالفقه . اما المسلمون ، كما يظهر لي ، فقد حاولوا ان يعبروا عنها ، في الدرجة الاولى ، بنظام اجتماعي . ولا توجد ، حسبما اعلم ، كلمة بالعربية او في الواقع باية لغة اسلامية تعني « الارثوذكسية » . والكلمة التي تترجم عادة « بالارثوذكس » سنيّ ، تعني في الواقع « ارثوبراكس » ، تابع السنة – عادة النبي او طريقته – كما وضعها مشرعو الاسلام في عصور التكوّن . والفرق الاسلامية لا يقوم الخلاف بينها على المسائل الفقهية – عدا نقاطاً قليلة ثانوية – بل على المسائل المتعلقة بالمعاملات . فالخلاف بين السنة والشيعة تولد اصلا من النزاع على النظام الذي يجب ان يكون عليه المجتمع ، وعلى نوع الناس الجديرين بالقيادة ، وما الى ذلك . وبينما اتجهت المسيحية في السنوات الحديثة نحو الدعوة الاجتماعية ، فقد كان الاسلام متجهاً نحوها منذ البداية .

وثمة فرق ظاهر بين الديانتين ، هو ان في العهد الجديد وحياً

إلهياً ، وأن في القرآن وحياً من الله ، وظل القرآن وحياً من الله يبين الصلة بين حياة الناس والله ، وحيـــاتهم بعضهم مع بعض . ولكي تكون مسلماً ينبغي ان تقبل حكم الوحي في كيفية نظام الحياة ، وهذا جميعه ما اسميه التفسير الفقهي الاساسي للاســـلام . وهناك تفاسير اخرى كما هو الحال في سائر الاديان . وكل دين ظل سائراً اربعة عشر قرناً لا بد من ان يكون فيـــه شيء ذو اهمية اساسية وذو معنى يقوله لكل انسان ـ سواء كان ثرياً ام صعلوكا وأميراً كان أم عبداً. وهذا بلا ريب موجود في الاسلام . على أن رسالة الاسلام الكبرى ، كما تفهم من قواعـــده الرئيسة ، تدور حول المجتمع وحول تنظيم قواه السياسية والاجتماعية والاخلاقية ، فالاسلام دين اخلاق ، بما في ذلك من الاخلاق الاجتماعية .

اما الناحية الثانية التي يبدو فيها المسلك الديني الشخصي ، فهي ناحية المتصوفة في الاسلام الذين أدّوا دوراً مهماً جداً ، وإن كان هذا الدور متعارضاً في الغالب مع الفقهاء من اهل السنة ، وقـــد كتب جلال الدين الرومي ، اعظم الصوفيين ، كتاب « المثنوي » بعد سقوط بغداد باربع او خمس سنوات، وبتعبير آخر: بعد نهاية الامبراطورية التي أسسها العرب ، كما كتب القـــديس اغسطين « مدينة الله » في السنوات التي تلت سقوط روما مباشرة . وهـذا العنصر الصوفي في الاسلام اكدالنص على الرحمة والحب دون القوة،

والفرد[1] دون المجتمع ، والقلب والعاطفة دون العقل والتسلسل المنطقي . وعلى ذلك فالعنصر ذو الطابع الفردي موجود في الاسلام ، ولكنه ليس اساسياً ، ولم يعترف بانه من السنة المحض .

ان سقوط بغداد كانت اشارة إلى نهاية تلك الامبراطورية العربية الاسلامية التي بلغت حداً كبيراً من النجاح . وسنة ١٢٥٨ ترمز الى الانحطاط الذي كان قد بدأ من قبل والذي جاء غزو المغول فأنجزه . على انه ظهرت فترات انتعاش منذ ذلك الحين . واذا لم يكن العرب انفسهم لم يسجلوا ظفراً آخر ، منذ سقوط بغداد ، فأن مسلمين آخرين سجلوا ذلك ، وكان القرنان السادس عشر والسابع عشر ، من بعض النواحي ، اعظم القرون ، على الأقل ، من الناحية السياسية . فالامبراطورية العثمانية كانت مزدهرة وعظيمة . وامبراطورية المغول في الهند ربما كانت اعظم ما رأته الهند . والصفويون كانوا في ذروتهم في فارس . بيد انه في القرن الثامن عشر ضاع ذلك كله وانحط المسلمون إلى اسفل الدركات الاجتماعية والسياسية التي مروا بها . وانتهى القرن باحتلال الاوربيين لمعظم البلاد الاسلامية . ومع ان الامبراطورية العثمانية كانت ما تزال مستقلة كانت في سبيلها إلى الهاوية ، وكان بعض الشعوب الاسلامية في حكم الهولنديين في اندونيسيا ، وحكم الفرنسيين والبريطانيين وغيرهم .

---

(١) يعترف الاسلام بالفرد وحقوقه وحريته ويرعى ذلك كل الرعاية ، ولا ينتقص من ذلك الا في حدود ضيقة تتعارض فيها مصلحة الفرد مع الصالح العام .

ان الاكتشافات العلمية التي تمت في القرن التاسع عشر، كانت ذات معنى للمسلمين مختلف عن ذاك الذي لمسيحي ذلك العصر، فالمسيحيون رأوا افكاراً وصوراً ناجمة عن العلم تبدو مباينة لآرائهم وعقائدهم السابقة، والحقيقة العلمية بدت مختلفة، بل من بعض النواحي اصحّ من الحقيقة التي جاءتهم من الله. والمسلمون، من الناحية الاخرى، رأوا العلم يولد فنوناً جديدة وقوة صناعية، وأثمر العلم شيئاً اعظم من القوة التي جاءتهم من الله نفسه. وقد انشأ المسلمون حسب إرادة الله حضارة ناجحة للغاية، ولكن الآن جاءت قوة جديدة تنسخها بل تهاجمها، قوة لا تعتمد على الله او على اي تصديق إلهي. ويبدو لي أن هذا التهديد الذي وجه للمجتمع الاسلامي — فقدان المسلم العادي للفتوة والخيلاء — هو الذي اثار قلقه حقاً. ونجم عن ذلك مشكلة فقهية لأن القوة في نظره من الله، ومع ذلك فها هي ذي الامبراطوريات البريطانية والهولندية والفرنسية تزداد قوتها يوماً بعد يوم دون المجتمع الاسلامي.

وإذن فان الجماعة الاسلامية اليوم هي التي تُتحدى، لا هذا المجموع من الآراء. ومن المسلّم به ان تلك الجماعة تعتمد على ايمان شخصي. إنها وليدة مَثَل اعلى رائع، يجمع بينها ولاء مشترك وتقاليد مشتركة، ونظام من القيم والعقائد، أُتقن وضعه اتقاناً عظيما، وهذه الجماعة تنبض فيها حيوية ايمان شخصي متمكن في النفوس ومشبع بالدين — إيمان بلغ حداً من الحرارة والقوة المعنوية لدى كل فرد من افراد الجماعة حتى ان كثيرين يؤثرون

بطيبة نفس ان تفارقهم الحياة نفسها دون هذا الايمان ، وهـذا المجتمع ، هذه الجماعة ، صورة حية لفكرة دينية . وهـذا العالم في نظر المسلمين ، ان كنت فهمت الامور تماماً ، هو الصورة الحيـة الرئيسة . وحفظ الجماعة في نظر الاسلام ، هو المسألة الكبرى في التاريخ .

تنوع التهديدات

ويضاف الى ما تقدم ان الجماعة الاسلامية قد هددها غير مصدر واحد . وعلى ذلك فان رد فعل الثوريين المسلمين لم يتجه ضـد العلمانية الغربية وحدها . فعرابي باشا والمهدي وكثيرون غيرهما كانوا يحاربون الفساد الداخلي الذي كان يهدد الاسلام تهديداً لا يقل عن تهـديد القوى الخارجية . وكان المجتمع الاسلامي — كالامبراطورية الرومانية عند بدء سقوطها — تهدده قوى عنيفـة « قدسية » من الخارج ، وضرب من الانحلال ، او الغفلة او فقدان الحمية والتضامن في داخله . وقد نشط جمـال الدين نشاطاً عظيما محاولاً دفع الانحلال ، الى حد الاستعانة بالوسائل الثورية . ومن ذلك اغتيال شاه فارس . ومهدي السودان كان خصماً للاتراك . وحركة السنوسيين في ليبيا وبرقة كانت ، الى حد ما ، احتجاجاً ثورياً على عجز الاتراك وفسادهم واستغلالهم . والواقع ان اول احتجاج ، او اول حركة ثورية في الاسلام الحـديث ، لم تكن موجهة ضد الغرب ، بل ضد هذا الانحلال الداخلي . وقـد

قامت هذه الحركة في تلك البقعة من العالم الاسلامي البعيدة غاية البعد عن الاحتكاك الغربي ، ألا وهي الجزيرة العربية . لقد حاولت حركة الوهابيين المحافظة ، التي بدأت في منتصف القرن الثامن عشر ، ان تُثبّت المفهوم القديم للجماعة الاسلامية . وكان محمد بن عبدالوهاب يقول قبل كل شيء : « يجب ان تعيشوا حسب الشرع الاسلامي . وهذا هو معنى ان تكونوا مسلمين ، لا ذاك الرغاء العاطفي ، والتقى ، والحرارة التي يقدمها لكم الصوفيون . فأساس الاسلام هو الشرع ، واذا كنتم تريدون ان تكونوا مسلمين فيجب ان تعيشوا حسب أوامر الشرع » . وقد اجتازت الوهابية ايام شدة ، وأيام رخاء . ولكن إلحاحها على وجوب اعادة نظام الحكم الاسلامي القديم ، الذي كان ذا قوة ومجد ، كان له صدى في العالم الاسلامي . وبناء على ذلك ، نقول إن الاتجاه اليوم ليس ضد الغرب وحده ، بل ضد الانحلال الداخلي ايضاً .

على ان الاتجاه ضد التهديدات الخارجية ليس قاصراً على ما يأتي من الغرب . ذلك ان الاضطراب الوهابي في الهند الذي قاده السيد احمد البرلاوي كان موجها في الدرجة الاولى ضد (السيخ) الذين قامت امبراطوريتهم عقب امبراطورية قدامى المسلمين المغوليين ، وان كانت الى حد ما ضد البريطانيين ايضا . ثم ان ابرز الثورات وأروعها في العالم الاسلامي الحديث ، التي آلت الى ظهور « الباكستان » ، كانت موجهة في الدرجة الاولى ضد الهندوس .

ثم ان الاتجاه لم يكن ضد الحياة الغربيـــة من حيث كونها علمانية فحسب . وأظن أنّا كثيراً ما نغالي في تقدير العلمانيـة التي توجد اليوم في مجتمعنا . والنقطة التي ظهر فيها أثر هذه الحقيقـة ، على وجه خاص، في العالم الاسلامي، هي بالطبع نشاط الارساليات ولا يمكن هنا ان نصف في جملةٍ واحدة المنهاج الواســع الذي قامت عليه المستشفيات والمدارس وأعمال التبشير الديني أو أن نبين قيمته . ولكن لأذكر هنا مؤقتاً أن بعض رجال الارساليات التبشيرية قد نقد الاسـلام نقداً تهكمياً لاذعاً وهاجم العقيـدة الاسلامية هجوماً عميقاً . واظن ان واحداً او اثنـين منهم على الاقل قاما بأعمال يمكن ان توصف بانها جارحة للجماعة الاسلامية ، أو هي على اي حال ، أشبه بوضع الملـح على الجرح الناجم عن عوامل اخرى . ومثال آخر يمكن ان نضيفه شاهـداً على الاعتداء الغربي الذي لا صبغة علمانية له ، هو هذه الضربة الشديدة الاخيرة التي تُعَدّ من أشد الضربات بنا ، تلك التي انزلناها بالجماعة الاسلامية وهي : الصهيونية .

ومن المهم ان نذكر الآن كذلك ، انه حين تنتقل العلمانيـة الى العالم الاسلامي لا تبقى علمانية غربية ، انها تصبح علمانية شرقية وانا أقرر أنها قد تكون شيئاً مخالفاً لما كانت عليه اصلاً . ذلك أنا نحن في الغرب كانت لنا تقاليد ليست ذات صبغة دينية عززناهـا بأكرم نزعاتنا الخيّرة . وهذه على ما ارى لا مقابل لها في الشرق الادنى . وانا لا اتكلم هنا عن العلمانية الغربية التي ينتج عنها الشك

او الفساد ، بل العلمانية الغربية في احسن حالاتها – وهي انمـاء الفلسفة الاغريقية . ان حضارتنا هي وليدة المسيحيـة واليهودية ، ذلك الميراث الديني الذي جاءنا من فلسطين ، مضافاً اليه الفلسفة الاغريقية والفكر الاغريقي في العدالة والنظام والتفكير الحرّ . واذانقلتم العلمانية الغربية الى العالم الاسلامي مجردة عن اسّ الفلسفة الاغريقية فانكم تقوضون أساس البناء الاسلامي ولا تقدمون شيئاً بديلاً عنه . وينتج عن ذلك فساد وتفسخ .

فواضح اذن مما تقدم ان التهديدات الموجهة الى الجماعة الاسلامية مختلفة ، وليست العلمانية الغربيـــة الا واحدة منها . وها هي ذي الشعوب الاسلامية تظهر على مسرح العالم الحديث واغلى شيء في حوزتها ، وهو الجماعة الاسلامية ، مهدد بالانحلال .

ردّ الفعل

ماذا سيكون ردّ الفعـــل الاسلامي للتهديدات التي تواجهها الجماعة الاسلامية ؟ يمكن تقسيم ردّ الفعـل ، حسبما اوضح منهاج مؤتمرنا ، الى نوعين : التطور والثورة . أما التطور فأكتفي بالقول فيه ان المسلمين يواجهون الواجب نفسه الذي نواجهه نحن . فهم مثلنا عليهم ان يفكروا ، ويفكروا ، طويلاً في الحياة التي سيحيونها في القرن العشرين . وانها لمشكلة عويصة . على أنا نمتـاز عنهم بأنا قد أنشأنا عدداً من المؤسسات والهيئات التي تخصص جميع أوقاتها لدراسة هذه المشكلة ، في حين ان العالم الاسلامي بوجـــهٍ عام لم

يفعل شيئاً من ذلك . وليس عنده ما يعادل هيئاتنا الفلسفية او كلياتنا ، او مؤسساتنا الفقهية . لقد حصّل المسلمون الفلسفة الغربية التي قدمتها لهم المدارس الغربية ، وحصّلوا ما حُفظ من الفكر الاسلامي والمعاملات الاسلامية ، ولكن هذين الموضوعين لم يتفاعلا كما تفاعلا عندنا .

اما بشأن رد الفعل الثوري فان مجرد الاحصاء يشير الى ايّ حدّ كان المسلمون ثوريين في اثناء المئة والخمسين سنة الاخيرة تقريباً فهناك الثورات التي ذكرناها سابقاً وهي : ثورة عرابي باشا في مصر ، الثورة السودانية ، وحركات جمال الدين الافغاني ، ثم الثورة الريفية في مراكش ، وفي الهند حدث الاضطراب الوهابي ، وحركة الخلافة في الحرب الكبرى الاولى ، وازمة حيدر اباد قبل نحو سنتين ، وفي ايران وقعت ثورة ١٨٩١ ، وقامت حالة ثورية متواصلة استمرت الى سنة ١٩٠٩ او حوالي ذلك . واندونيسيا ظفرت باستقلالها حديثاً . وهكذا أبدى المسلمون نشاطاً ثورياً عنيفاً في وجه مختلف التهديدات التي وجهت الى مجتمعهم .

وهناك ثلاثة من ردود الفعل ثورية ذات معنى خاص أود ان أعالجها قليلا ، فقد ظهرت في تركيا ، والباكستان ، وفي حركة الاخوان المسلمين . واثنان منها قد نجحا والثالث لم ينجح . وقد فُسرت الثورة التركية أحياناً للغرب بأنها ثورة على الدين . ويبدو لي ان هذا التفسير غير صحيح . وإني لأعلم انه اتخذت اجراءات صارمة نحو رجال الدين ، والقيت بعنف بعض التقاليد الدينية

الصورية . وهناك مع ذلك رسوم لكمال اتاتورك تظهره وهو يدعو الى الثورة بلباس « خوجة » في جامع انقرة. وقد ذكر انه كان دائماً يستمع الى قراءة المولد الشريف في احتفالات المولد النبوي . وأنا لا اعلق كبير اهمية على هذه المظاهر ، لاني اعتقد انه كان علمانياً حقاً . ولكنه كان محاطاً برجال لا شبهة في تدين بعضهم . واعتقد أن الاتراك اليوم مسلمون ، وان اسلامهم صحيح وقد اتضحت هذه الحقيقة للعيان في خلال السنوات الخمس الاخيرة ولعلّ من يعترض بانه كان يجب ان أذكر شاهداً على الثورة الاسلامية في تركيا، تلك الحادثة التي وقعت سنة ١٩٢٥ حين تزعم بعض رجال الدين فريقاً من الاتراك الاكراد في ثورة على مصطفى كمال باشا والجمهورية التركية الجديدة . ولكنني لا أستشهد بذلك الحادث لانني اعتقد ان ذلك الفريق لم يكن ممثلاً تركياً المسلمة بقدر ما مثلها الحزب الثوري نفسه : الكماليون انصار الجمهورية .

لقد قرر الاتراك ، بعد قرنين عانت فيهما الامبراطورية الانحلال وفقدان القوة ، أن السبيل الوحيد لحفظ قومهم هو الأخذ بالعلوم الغربية ونظام الجيش الغربي والحضارة الغربية. وهذا ما فعلوه بالفعل . وقد كان هذا العمل ثورياً ليس بمعناه الظاهر الذي بدا في قتال اليونان والحكم القديم نفسه فحسب ، ولكنه كان ثورياً ايضاً بالمعنى الروحي الذي بدا في تغيير تصورهم للاسلام . وقد قال سائر المسلمين : إن الاتراك هجروا الاسلام لأنهم هجروا الشريعة (القانون) التي كانت الصورة الرئيسة

المعبرة عن الاسلام . وفي رأي هؤلاء ان إقامة مجتمع على قواعد موضوعة غير القواعد التي أوصى بها الله ، هجرٌ للاسلام . ولكن الاتراك قالوا : « لا ، نحن غيَّرنا تفسيرنا للاسلام . وسنحتفظ بالاسلام على وجه آخر » . أما كيف نعرف هذا الوجه الآخر ، فأمر سيظهر فيما بعد ولعلهم يريدون ان يحتفظوا بالاسلام كما ظهر في تعاليم الصوفيين .

والباكستان هي الثورة الثانية التي نجحت نجاحاً مدهشاً . فقد تبلورت فكرة إقامة جماعة اسلامية مستقلة في الهند بصورة دولة في مدة قصيرة . وها هي ذي الآن تسير قدماً نحو بناء دولة على احسن وجه . وثورة الباكستان تختلف عن الثورة التركية من ناحية واحدة أساسية ؟ تلك هي ان الاتراك اتخذوا التجدد وسيلة للبحث عن الدين ، أقاموا دولة حديثة . وهم يحاولون ان يكيّفوا الاسلام على نحو يلائم حياتهم الجديدة . اما مسلمو الباكستان ، من الناحية الاخرى ، فقد اتخذوا الدين وسيلة للبحث عن التجدد . اقاموا دولتهم على قاعدة الاسلام . وهم يحاولون الآن ان يجعلوها دولة حديثة . انهم يتحسسون طريقهم ويسيرون قدماً في وجه معارضة وتيارات متنازعة . ومشكلة الباكستان ، هي : كيف يمكن ان يتجددوا دون ان يفقدوا دينهم . ومشكلة الاتراك إزاء يقظة الاسلام الجديدة هي : كيف يمكن ان يجعلوا الاسلام ظهيراً لهم دون ان يفقدوا تجددهم .

اما « الاخوان المسلمون » فحركة طريفة للغاية اثارت الحماسة

وعلمت العبادة ونظمت الجماعات على نحو لم يستطع أي حزب في مصر ان يجاريها به . على انها حتى الآن على الأقل لأسباب قاهرة قد أخفقت[1] . ورأيي فيهم – وأنا ابديه بكل تحفظ لسببين : اولاً لأن معرفتي بهم قليلة ، وثانياً لأني اعتقد ان النبأ الاخير عنهم لما يصلنا – أنهم نجحوا لأنهم اسلاميون ، واخفقوا لانهم لم يأخذوا باسباب التجدد . ويبدو لي ان الوفد وغيره من الحركات ، نجح الى حدٍّ ما لانه متجدد ، واخفق لانه ليس حركة اسلامية الى الحد الذي يجب أن يكون .

الختام

وفي الختام اعرض الخلاصات العامة الاربع :

اولاً : هناك انتعاش في الحضارة الاسلامية ومحاولة لاعادة بناء مجتمع اسلامي في القرن العشرين . وليس يعني هذا بالضرورة إعادة بناء المجتمع الاسلامي القديم، بل بناء مجتمع يكون اسلامياً.

ثانياً : ان الحركة القومية في شكلها الواضح السافر ، قد اخفقت في الشرق الأدنى، وهي ذات قوة فعالة للغاية عندما تنهض للمقاومة – مقاومة الغرب ، مقاومة البريطانيين ، مقاومة الهندوس . ولكن القومية ليست فكرة مثالية كافية لتحدث عملاً ايجابياً بنّاء . وحين يختفي العامل الخارجي المحرّك تتراخى القوى

(١) نرجح ان مرد هذا الحكم المحنة التي ابتلي بها الاخوان . والحال اليوم مختلف . [المترجم]

العاملة للاستقرار ، الداعية إلى العمل الجدي وتضحية المصلحة الشخصية في سبيل مثل أعلى – في سبيل الجماعة ، والتقدم ، والأجيال المقبلة . وتاريخ الشرق الأدنى الحديث يدل على ان القومية المجردة ليست القاعدة الملائمة للنهوض بالواجب الشاق البناء. وما لم يكن المثل الأعلى اسلامياً على وجه من الوجوه ، لن تثمر الجهود البتة .

ثالثاً – ومع ذلك ستكون الحضارة الاسلامية قومية . ستكون محلية بأجزائها ، ويبدو انه قد انقضى ذلك الوقت الذي يمكن فيه إقامة دولة اسلامية عامة أو جماعة اسلامية عامة . وقد حاولت الباكستان ان تفعل ذلك في حركة الخلافة عقب الحرب الكبرى الاولى . وحين رأت الحركة الاسلامية مهددة في مركزها السياسي الرئيس في القسطنطينية ، حاولت هي ان تقضي على ذلك التهديد ، ولكنها اخفقت اخفاقاً ذريعاً. والآن عزم الباكستانيون على اقامة دولة اسلامية في بلادهم ، الباكستان . وكذلك حال الاتراك. فقد نبذوا دعاوى العثمانيين وشرعوا في بناء مجتمع جديد داخل تركيا . ولو فرضنا قيام مجتمع على اساس الوحدة العربية فمما لا شك فيه ان هذا المجتمع لن يضم الفرس والاتراك والهنود والاندنوسيين وغيرهم من الشعوب الاسلامية ، واذا صح ان نستخلص اتجاهاً ما ، فأني اظن انه يمكن القول ان البعث الاسلامي الجديد ، والمجتمع الاسلامي الجديد ، ان تحقق ، سيكون عبارة عن مجموع قوميات اسلامية محلية ، أو عدة مجتمعات اسلامية لا

مجتمع واحد .

رابعاً : وهذه المجتمعات الاسلامية المحلية ستكون متجددة وليس من المحتمل احياء النظام القديم ، فالتجربة تدل على ان ذلك النظام لن يعيش ولن يسير .

واخيراً — وهذا ناتج عن النقطة الاخيرة وعن جميع ملاحظاتنا — ان الجماعة الاسلامية تواجه صعاباً شديدة . وليس من السهل على المسلمين ان يحلوا مشاكل القرن العشرين العويصة ، بما في ذلك من مشكلتي الفقر والمرض اللتين لهم منهما حظ كبير . وعلى كل حال : علينا ان نرقب الحالة . فالمسلمون يجتازون وقتاً عصيباً ويعانون ازمة روحية يشعرون بها شعوراً تاماً . وهكذا نحن ايضاً . فالقرن العشرون ليس قرناً تسهل فيه المعيشة . مضافاً الى ان العالم الغربي قد أحدث حربين عالميتين في خلال نصف قرن ، وقد احدث الفاشية والنازية والشيوعية . ونحن احياناً نتكلم عن «صراع الشرق والغرب» كأن الشيوعية شرقية . وهو امر سخيف فالشيوعية هي نتاج غربي . والحضارة الغربية بوجه عام قد جعلت الحياة في العالم الحديث مظهراً خطراً جداً . وربما أخفقنا . وحينذاك سنجر العالم الاسلامي معنا . وهذا كما يبدو لي احتمال لم تدركه الجماعة الاسلامية جيداً . أو يجوز ان نهلك نحن وتنجو الجماعة الاسلامية بنفسها . وهذا احتمال يطيب لعدد من المسلمين . على اني لا اظن ان عدداً كبيراً منهم يذهب الى هذا الحد من التهور . بيد ان هذه الحقيقة خليقة بان لا تغرب عن الاذهان .

وبعبارة اخرى : نحن متشاركون ، كما يعلم اكثر الناس . هم لهم مشاكلهم ونحن لنا مشاكلنا . ونحن احياناً نغضب لانهم لا يريدون ان يساعدونا على حل مشاكلنا ، لانهم لا يظاهروننا في سياستنا الخارجية وما الى ذلك . وهم كذلك يغضبون احياناً لأنا لا نساعدهم على حل مشاكلهم الى الحد الذي يريدون . وانا مع ذلك ، موقن ان المسلمين يشعرون بوشائج القربى التي تربطهم بالمسيحية ، بفكرة اهل الكتاب . وهذا ولا شك موجود عند مسلمي الهند والباكستان ، كما هو اليوم ، وعند الاتراك . فنحن جميعاً على حال واحد .

وإن نجاحهم على كل حال (مثلاً نجاح الباكستان في اقامة دولة اسلامية تكون متجددة حقاً) أمر سيكشف عنه المستقبل ، وسنقف في عرض العلاقة بين الاسلام والحياة الحديثة عند هذا الحد ، تاركين للمسلمين انفسهم ان يتولوا الامر بعد ذلك : والجواب النهائي يعتمد عليهم ، بوصفهم اشخاصاً احياء ومفكرين . وليس هناك تحليل او بحث او تفكير يمكن ان يوضح الصورة التي سيكون عليها الاسلام في المستقبل. ولذلك اختم بحثي وانا معترف بان الصورة لم تكمل . وانه ليشوقنا أن نراقب الحالة ويشوق غيرنا من هذا الجيل ان يرى كيف يتصرف هذا او ذاك منا بمهمة الحياة في عالم التجدد .

الاسلام والعلمانية الغربية

(ب) رد الفعل التطوري

بقلم محمد حسن الزيات
الملحق الثقافي في السفارة الملكية المصرية بواشنطن

•

لقد قرر الاسلام العلاقة بين الانسان وخالقه ، وبين الانسان وأخيه الانسان ، ومن هنا كان لا بد ان يشتمل على تعاليم دينية ، وعلى قانون اجتماعي ، وقد ولد الاسلام في بيئة متأخرة ، ولذلك كانت رسالته الاولى ان يحث على العلم . وأول آية نزلت كانت امراً بالقراءة باسم الخالق . فالاسلام ، فضلا عن كونه ديناً ، قد أوجد جواً فكرياً وأقام نظاماً علمانياً .

وقد جابه الاسلام الغرب ، في خلال ١٣٠٠ سنة من تاريخه ، وكانت له علاقة مستمرة بالبلدان الغربية في ايام السلم وايام الحرب . وعبارة «العلمانية الغربية» ذات دلالة واسعة وسع دلالة لفظة : الاسلام . ولذا أراني اشعر بضرورة تحديد هذا الموضوع ، وحصر البحث في المدة

التي تبدأ بغزو نابوليون مصر من حيث الزمان ، وفي مصر وسوريا من حيث المكان . وكلا البلدين يمثل البيئة المحظوظة التي يجري فيها التطور التقدمي للحياة الاسلامية ، كما ان كلاً منهما مألوف عندي اكثر من اي بلد اسلامي آخر .

دوام التعاليم الاسلامية

ان اركان الاسلام المتعلقة بالعقيدة قليلة ، فلكي يكون المرء مسلماً عليه ان يعلن ان لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله . وفرقنا اهل السنة والشيعة نشأتا إثر خلاف سياسي لا ديني . واهل السنة ينقسمون الى اربعة مذاهب رئيسة ، لكل مذهب مدرسة قانونية تستند الى اجتهاد مؤسسها الخاص في تفسير القانون الاسلامي كما ورد في القرآن [1] . هذا الى انه نشأ من اثر الفلسفة الاغريقية ، جدل وخلاف أدّيا الى ظهور بعض الفرق الاسلامية كالمعتزلة والمرجئة . ونشأت كذلك طرق صوفية بتأثير الفكر الهندي والايراني والهيليني والمسيحي . بيد انه يمكن ان نقرر ان اركان الاسلام الاساسية القليلة لم يصبها اي تطور جوهري او طفرة بتأثير العلمانية الغربية الحديثة او اي نفوذ غربي آخر .

---

(١) ليس القرآن وحده هو أساس التشريع الاسلامي لا في هذه المدارس ولا في غيرها. فجانب القرآن تستمد الشريعة الاسلامية احكامها من السنة (قول النبي وعمله وإقراره) ومن الاجماع (وهذان الاصلان تتفق في الأخذ بها جميع المدارس) كما تستمد احكامها في نظر بعض المدارس من « القياس » وفي نظر بعضها من نظرية المصالح المشتركة والصالح العام لمجتمع ما في عصر ما .

والمسلمون المحدثون جميعاً ، كجمال الدين الافغاني ومحمد عبده ومحمد اقبال وامير علي لم يمسوا اصول العقيدة في حركاتهم الاصلاحية ، واظن ان الدكتور بايرد دودج وغيره ممن تكلموا عما سموه « الاسلام الحديث » في مصر او الهند قصدوا المجتمع الاسلامي ونظامه الاجتماعي والثقافي . لان الناحية التي تتعلق بالعقيدة لم تخضع لاي تطور ملموس .

تطور الثقافة

لقد سمعنا عصر اليوم ان ركوداً أصاب المجتمع الاسلامي بعد القرن العاشر . وقد قرأت هذا الحكم العام في الكتب ، وسمعته حتى في الجامعات المصرية . ولكني أود ان أؤخر هذا التاريخ كثيراً . ففي النصف الثاني من القرن الثالث عشر جاء التتر بعشرات الألوف من جنودهم ، وهدموا كل شيء ، واجتاحوا كل شيء كالعاصفة . فقتلوا الخليفة وجميع علماء البلاط في بغداد . وقذفوا في دجلة مئات المئات من المخطوطات التي كانت فخر المكتبات في العاصمة الاسلامية . واذا كانت مصر وسوريا قد استطاعتا ، في حكم المماليك ، أن توقفا الغزاة التتر ، فان جامعة الازهر اصبحت موئلاً لعلماء بغداد .

بيد ان غزوة اخرى قام بها الاتراك سنة ١٥١٧ ، قضت على آخر بلد عربي مستقل . وأمست القاهرة ، عاصمة الثقافة والقوة الاسلاميتين ، بلداً في ولاية تابعة للأمبراطورية العثمانية . ومنذ

ذاك الحين بدأ المجتمع الاسلامي يـــدخل في دور الركود . وأخذت مصر تفقد مركزها الاقتصادي كما فقدت مركزها السياسي .

ثم ان اكتشاف اميركا وسير طريق الملاحة حول رأس الرجاء الصالح ، حرما البلاد اهميتها من حيث كونها ملتقى طرق التجارة. ومن الناحية الثقافية اقام الاتراك ستاراً حديدياً – كما يقـــال في التعبير الحديث – حول ممتلكاتهم ؛ ففصلوها عن الاحتكاك الطبيعي بالغرب الناهض الذي هو اليوم موطن حركة الأحياء ، والصناعة والعلم التجريبي .

واخذ تقدم الجامعة الازهرية ، بتأثير هذه الظروف المعاكسة له ، يبطؤ إلى حد التوقف . واقتصرت الدراسة فيه عـــلى العلوم الدينية واللغوية ، بل حتى العلوم اللغوية انحصرت في مدى ضيق . يضاف الى ذلك انه حـدث شيء خطير جداً في الازهر ، فان المصريين ، وهم رهن الحكم الاجنبي ، التفتوا الى علمائهم يلتمسون شفاعتهم لدى حكامهم الاتراك المسلمين .

ويخلق بنا ان نلخص هنا حادثة ذات مغزى رواهـــا المؤرخ المعاصر الجبرتي . فقد تحدث عن وصول الحاكم التركي احمـد باشا القاهرة (سنة ١٧٤٩–١٧٥٠) واستقبـــاله كبار علماء الازهر الاستقبال المعتاد . وبعد ان خاض الباشا في موضوعات متنوعة شرع يتحدث عن الرياضيات ، لعنايته الخاصة بها ، فقال ان الاتراك كانوا قد اعتقدوا ان مصر بلد العلم ، ولكن هذا الاعتقاد لا يمكن

ان يكون صحيحاً ، لأن علماء الازهر ، وهم أعلم من في البلاد ، لا يعرفون شيئاً عن الرياضيات . فردّ الشيخ الشبراوي ، الذي كان شيخ الازهر في ذلك الحين ، ان مصر هي حقاً بلد العلم ، ولكن شيوخ الازهر ليسوا اعلم من في مصر : « وإنما نحن المتصدرون لخدمتهم وقضاء حوائجهم عند أرباب الدولة والحكام[1] فهم لم يشغلوا انفسهم بالعلوم كالرياضيات والفلك. فهذه الموضوعات شاقة وتكلف اكثر الطلاب أموالاً لا يتحملونها .

على ان الازهر ، كجامعة باريس ، شرع منذ تأسيسه قبل نحو ١٣٠٠ سنة يدرس فروع المعارف العلمانية لتساعد على درس العلوم الدينية . فهو يدرس اللغة والادب لفهم القرآن ، ويدرس الرياضيات لتعين طلاب العلم على إدراك أحكام الفرائض والمواريث ويدرس الموسيقى لضبط قراءة القرآن ، ويدرس الفلك لضبط اوقات الصلوات والصيام الخ... ولو كانت الظروف مواتية ، لتطور الازهر على منهج جامعات باريس واكسفورد وكمبردج ، ولأعان كثيراً ، بمختلف كلياته وحسن نظام المعاهد المرتبطة به ، على تطور الثقافة الاسلامية تطوراً ناجحا مثمراً . بيد أنه ظل ، بضغط الحكم العثماني ، رهنا بتصرف هيئة من رجال الدين تتحمل تبعة تمثيل الشعب لدى السلطات .

وفي أثناء ذلك تقدمت الحياة في الغرب. فنبذت اوربا ماضيها

---

(١) اصل العبارة بصيغة المتكلمين، وبالانكليزية بصيغة الغائبين. فتكون الترجمة « وانما هم المتصدرون الخ .. » انظر الجبرتي ج١ ص١٩٣ [المترجم]

القروسطي ، وأنشأت فرنسا جمهوريتها الاولى . وفي خدمة هذه الجمهورية جاء نابوليون الى مصر . وكان قد رسم خطة لاحتلال وادي النيل احتلالاً دائمًا ، فجلب معه ، لذلك نفراً من أقدر علماء فرنسا ليدرسوا الحياة المصرية من جميع نواحيها. وبينما كان هؤلاء العلماء منصرفين إلى عملهم ، حاول بونابرت ان يعيد تنظيم البلاد . قال بونابرت في مذكراته :

« كان لا بد من وجود وسطاء بيننا وبين الشعب . وبحثنا عن هؤلاء الزعماء في هيئة الازهر ، وهم رجال الدين . وهكذا مكنّا لهم السلطة على الجماهير . وقد عرفنا ان الصعوبات الخطيرة التي ستواجهنا ، ستأتي من ثأر المسلمين من الحكم الاجنبي والمسيحيين. وعلماء الازهر هم مفسرو القرآن ، وهم الذين سيعلمون أن اصلاحاتنا منسجمة مع الاسلام ، وهم يخبرون الشعب بذلك ، وعلماء الازهر هم بالتأكيد من اشد الناس ورعاً ، مضافاً الى انه لا يوجد واحد منهم امتطى صهوة جواد . فهم لا علم لهم بشؤون القتال ، ولذلك فلا خطراً حربياً علينا من قِبلهم . ولهذا جعلنا علماء الازهر هم زعماء مصر ، وألّفنا اول ديوان منهم . »

وبذلك توطدت الصلة بين الازهر والسلطات في مصر . وهذا ولا شك عاق تطوره الجامعي ، كما عاق نظام التعليم القومي الذي ارتبط به . وأنشأ الفرنسيون في القاهرة « معهد مصر » بمختلف دوائره للعلوم الحديثة، ومطبعة عربية أحضروها معهم من الفاتيكان وكانت ابواب المعهد مفتوحة للمصريين ، وقد حدثنا الجبرتي عن

تأثرانه هو وغيره من العلماء ، ومنهم صديقه الشيخ العطار ، لدى زيارتهم المعهد ، قائلا : « ان المسلمين الذين كانوا اول من انشأ المستشفيات والذين برّزوا في الطب والذين كانوا قدوة لمؤسسي أوائل المستشفيات في اوربا قد بلغوا الآن حداً من الانحطاط جعل كثيرين منهم يعتقدون ان الابحاث الكيماوية التي يقوم بها الفرنسيون ان هي إلا ضرب من السحر . وقد أعانت الطباعة ، تدريجاً ، على إحياء التراث الاسلامي، واصبح المصريون يشعرون بما قدمه العرب قديماً في ميدان العلم . »

وهكذا اخذت مصر تدرك ان النشاط العلمي الحديث قد انتقل الى اوربا ، وانه ليس غريباً عنهم تماما . وقد تقطع الحجاب الذي فصل بين البلاد العربية التي كانت تابعة للامبراطورية العثمانية، وبين الغرب .

وبعد خروج الفرنسيين انتخب الازهر ، وقد كان الهيئة السياسية التي تمثل مصر ، محمد علي والياً على مصر ليعيد الى البلاد استقلالها الفعلي من الاتراك ، وسارت مصر بعد ذلك قدماً في الاستفادة من العلوم الاوربية. ودخلت المدرسة الاوربية والمصنع الاوربي مصر ، وأرسلت البعوث المصرية في طلب العلم الى جميع انحاء اوربا ولا سيما فرنسا .

ولا بد من الاشارة الى أن الازهر وسائر الهيئات الدينية لم يُبد مقاومة لحركة التجدد بقدر ما أبدته الكنيسة المسيحية في القرون الوسطى من مقاومة للعلوم التجريبية .

والحق ان شيئاً من هذا ما كان ليتوقع ، لأن الاسلام أقرّ التجدد منذ البداءة . بل لقد أعان الأزهر محمد علي ، وتولى المبادرة الى العمل من بعض النواحي .

لقد كان خطيب اول حفلة للتخرج – حفلة توزيع الشهادات – لأول مدرسة للطب ، شيخ الأزهر ، وهو الشيخ حسن العطار صديق الجبرتي ورفيقه في زيارات العلماء الفرنسيين ، وخطبة الشيخ العطار تنبيء عن إدراكه ان العلم دولي – وان الاغريق والمسلمين قد ساهموا فيه يوماً ما وان الأوربيين الآن هم اصحابه وان على المسلمين المحدثين ان يُقبلوا عليه .

وقد فهم ان « التغريب » ليس بذي قيمة إذا اقتصر على مجرد التقليد للغرب ، دون ان يكون تطعيما للتراث القديم. واراد محمد علي ان يرسل مع البعثات العلمية الى فرنسا إماماً ليتأكد ان الطلاب سيستفيدون من دراساتهم ، وليحافظوا ، كذلك ، على عقائدهم الدينية . وتحقيقاً لذلك اختار الشيخ العطار طالباً من خيرة طلابه ليكون مرشداً لقاصدي المعاهد الغربية العلمانية ، وهو الشيخ رفاعة الطهطاوي . وقد كلفه استاذه ان يدوّن يومياً كل ما يرى في باريس . وكان مقرراً ان تُسلَّم هذه اليوميات الى الشيخ العطار لكي يستخلص منها اسباب تقدم الفرنسيين وانحطاط المجتمع الاسلامي .

وهذه المدرسة الفكرية التي أنشأها حسن العطار ظلت مثمرة، برعاية تلميذه الرفاعي وسائر طلاب الأزهر الذين عُنوا بالأبحاث

العلمية الحديثة مضافاً الى دراستهم الخاصة ، وهـــذه المدرسة ، ومدرسة اخرى أسسها جمال الدين الافغاني وتلميذه محمد عبـده ، ما تزالان مزدهرتين يسير بهديها كثيرون من المصريـين دون ان يدرك بعضهم انه في الواقع تلميذ اولئك الرجال . لقـــد اضحت آراؤهم ميراثاً عاماً . واعتقدت كلتا المدرستين ان الاصلاح الثقافي والاجتماعي الذي يعتمد على التقاليد الاسلامية المنبعثة وعلى الافادة من الثقافة الغربية ، هو الطريق الوحيدة للتقـــدم والمشاركة في الحضارة العالمية .

على ان محمد علي كان حريصاً على إنشاء مدارس حديثـــة لتخريج اطبـــاء ومهندسين ومتخصصين في مختلف الموضوعات الفنية . وادخل لهذا الغرض نظاماً مدرسياً جديـداً مستمداً من اوربا ، ظل يُعمَل به مع نظام الازهر جنباً الى جنب . ولكن من سوء الاتفاق ، ان كانت هذه المدارس العلمانية ، مستقلة عن الازهر ، وظل الازهر مركزاً دينياً في الدرجة الاولى ومركزاً سياسياً الى حد ما ، وتوقف نموه بوصفه معهداً جامعياً . غير ان مناهج المدارس الابتدائية الحديثة ، اشتملت على دروس في الدين ، كما هو الحال الى اليوم . وكان لا بد من الوصول الى المصطلحات العلمية في اللغة العربية لتنقل كتب العلم والاجتماع والسياسة الغربية الى العربية ، فيتيسر للطلاب المصريين ان يدرسوا هذه الموضوعات باللغة العربية . وقد بحث عن هذه المصطلحات في المؤلفات العربية العلمية القديمة ، التي كانت يوماً من الايام مصدر العلوم الاوربية ،

وامكن الآن إعادة طبعها ، بفضل الطباعة الحديثة .

وحينما دعا محمد علي باشا الفرنسيين لمساعدته قرر ان يجعلهم عناصر مندمجة في المجتمع . ولذلك حين دعا الكولونيل سيف حمله على التدين بالاسلام ، وهو الذي اصبح اسمه ، فيما بعد ، سليمان باشا الفرنساوي . وهذا مثل آخر على تطعيم المجتمع القومي ، او الاسلامي ، بالعلوم الغربية والعلماء الغربيين .

وحلم والي مصر ببعث اسلامي عربي . فقاده ذلك الى فتح سوريا . وأدى حكمه ، الموسوم بالتسامح والاستنارة ، الى فتح ابواب البلاد أمام الارساليات الغربية ـ الفرنسية والامريكية والكاثوليكية والبروتستانتية . وكانت سنة ١٨٣٤ نقطة تحول . فقد عاد اليسوعيون الى البلاد واندفع رجال الكنيسة المشيخية نحو العمل ، واخذت الارساليات ينافس بعضها بعضا . وكانت لكل ارسالية مدارس تعلم اللغة العربية ، كما كانت لها مطابع ذات حروف عربية . وكانت مدارس البنين العلمانية التي نظمها المصريون في سوريا تشتد عنايتها بالعلوم الغربية الحديثة والعربية الفصحى . وأسس الامريكيون اول مدرسة للبنات ناهجين على المنوال نفسه من حيث العناية بالعربية والعلوم الحديثة .

وحينما اضطر المصريون الى ارجاع سوريا للاتراك هاجر كثير من المتعلمين الى مصر حيث شعروا بأكثر حرية للاستمرار في نشاطهم الأدبي . وأسست الارسالية التابعة للكنيسة المشيخية كلية للبنين في أسيوط تُعدهم طلاباً للكهنوت . وكان الغرض الاصلي

انعاش الكنيسة القبطية لتتمكن من التبشير بين المسلمين . وقد نسب عدم النجاح الى تأخر البلاد الاسلامية . ومن ثم انشأت الجامعة الاميركية في القاهرة معهداً غير طائفي لتحرير المجتمع — ولاعداد التربة لكسب متنصرين جدد ، ولرفع ثقافة الشبان الى درجة تمكنهم من فهم المسيحية . وأستطيع ان اقول إنه قد وقع لحسن حظنا تطور في القيم ، على حد تعبير الفلاسفة ، أدى الى جعل الوسائل غايات . ففي حين ان الجامعات في القاهرة وبيروت وأسيوط تساهم بحق في نشر الثقافة الغربية ، اعتقد انها قد نحّت غرضها التبشيري الذي وضعته نصب عينيها .

وكذلك حال الفرنسيين الكاثوليك . فقد تطورت اهدافهم وآراؤهم . ولهذا دلالة عظيمة . فالظاهر ان هذه الارساليات المسيحية قد ادركت ، عن وعي او غير وعي ، أنها لا تستطيع ان تقدم شيئاً ذا قيمة للجماعة الاسلامية إلا اذا جاء ذلك في نطاق الاسلام . وهذا التطور في القيم ، في نشاط الارساليات الموجودة في الشرق الاوسط ، يعني ان الاسلام قد صان المجتمع الاسلامي من الانهيار ودل على انه مجتمع نام قابل للتطور واستساغة المعرفة كما امرته اول آية نزلت في الاسلام .

تطور القانون

لقد كان متوقعاً منذ بداءة الاسلام ان تنشأ تفاسير مختلفة للقانون الاسلامي المدني ، وأُعدت العُدَّة لهذه النشأة . وضمَّ

القوانين العرفية الى التشريع الاسلامي ، دلّ على نظـــر اجتماعي نيّر ، ويسّر المرونة الضرورية لأي حكم صالح . ويعادل ذلك في الاهمية ان الشريعة جعلت «الاجماع» قاعدةً من قواعد التشريع . وأهم من ذلك كله ان الاسلام يجيز لأي شخص ذي كفاءة ، ان يفسّر ، او يعيد تفسير ، قوانين الاسلام ، وان يستقل بمدرســة خاصة . ونجاح كل مدرسة يتوقف على اصالة رأيها واقبـال الناس عليها . وهذا هو مبدأ الاجتهاد . وجميع اصحاب المدارس هم من العلمانيين ، لانه لا نظاما كنسياً في الاسلام . والشافعي احـد اصحاب المذاهب الاربعة الكبرى لم ينجح في اول الأمر ، بيـد انه حين شخص الى مصر واعاد النظر في تفسيره ، متأثراً – كما يرى الكثيرون – بالظروف السائدة فيها ، أصبحت مدرسته احـدى المدارس الاربع المهمة في القانون ، بسبب انضمام الكثيرين اليهـا ولم ينقد أحدٌ الشافعي لأنه استفاد من القوانين المصرية القائمـة على العرف والعادة . وقبوله القانون العلماني وتفسيره اياه وفق قواعـد الاسلام ، اقرهما المسلمون وما يزالون يقرونها .

على ان الجماعة الاسلامية في العصور المتأخرة اعتقدت ان ابواب الاجتهاد قد اقفلت في وجه اي تفسير إجلالاً للعلماء الثقاة المتقدمين وقللت من قدرتها وقدرة من يليها من الاجيال على المساهمـة باي جديد . وهذا احد اسباب ركود المجتمع الاسلامي .

بيد ان المجتمع الاسلامي غيّر الاسلام نفسه[1] . وقد ذهب عدد

(١) لم يتغير الاسلام نفسه ، وانما الذي تغير هو مبلغ محافظة المجتمعات عليه وامانتهم في تطبيق احكامه .

من المسلمين في القرن التاسع عشر بل في القرن الثامن عشر كذلك الى ان الوسيلة الوحيدة لتنوير الجماعات الاسلامية هي ان تفتح ابواب الاجتهاد على مصاريعها بعد إغلاق . ولا اعرف احداً قام بدراسة الحركات المهمة التي وُجدت في القرن التاسع عشر والتي نسمع اشياء عنها اليوم . وهذه الحركات ذات صبغة اسلامية محضا لا تتصدى للحضارة الغربية بحال ، وهي : الحركة الوهابية في جزيرة العرب ، الحركة السنوسية في ليبيا ، وحركات المهدي والمرغني في السودان . وانه لما يسترعي النظر – كما ارى – ان مؤسسي هذه الجماعات كلها قرروا وجوب العودة الى السنة والقرآن ، واعادة فتح باب الاجتهاد ، وانه ينبغي لهم ان يعيدوا تفسير قوانين الاسلام للجماعات التابعة لهم . وكان من الضروري استئصال العشب الطفيلي كي يعود اسلوب الحياة الاسلامية الأصيل الى القوة والازدهار . وذهب كل واحد في بقعته البعيدة ، الى انه على قدم المساواة مع غيره في الاجتهاد والتفسير . وليس من الواضح ان هذه الحركات كانت على صلات بعضها ببعض . وما اظن احداً درس العلاقة بينها ، ولكن مما لا ريب فيه انه لا صلة مطلقاً بينها وبين الحركات العلمانية الغربية . ويبدو لي انها كانت امارات المرض والحيوية معاً في المجتمع الاسلامي الرازح تحت حكم الاتراك العثمانيين . ووجد زعماء هذه الحركات في مبدأ الاجتهاد الاسلامي السبيل المأمون للتقدم والاصلاح الاجتماعي داخل الاسلام نفسه .

والتمس المشرعون المسلمون في مصر ، في القرن العشرين ،

ولوج هذا الباب ثانية ، لتطويع القوانين العلمانية الغربية للحياة الاسلامية . ومن هؤلاء علي عبد الرازق الذي حث كتابه « الاسلام واصول الحكم » على التقدم في نطاق الاسلام ذاته . ومنهم عبدالرزاق السنهوري باشا الذي يرجع اليه فضل إعداد القانون المدني في مصر ، ولم ير اي تناقض بين القوانين الدينية والقوانين العلمانية في الاسلام . وقد نصت آخر مادة في القانون المدني المصري الحاضر على انه اذا درست قضية ما ، وثبت انه لا ينطبق عليها اي قانون وجب أن يعتمد الحكم فيها على ارحب تفسير لأي قانون إسلامي في احد المذاهب الكبيرة أو الصغيرة .

والمصريون يحاكمون وفق القوانين العلمانية التي نظمت على غرار القوانين العلمانية الفرنسية ، مع مراعاة الملاءمة بينها وبين الشريعة الاسلامية قدر المستطاع ، وخاصة في القانون المدني . وكل قاض يجلس تحت شعار الآية القرآنية التي تأمر بالعدل، ونحن نحاول ان نغرس النظام العلماني في أرض اسلامية .

ويمكن تفسير الشريعة ، وإعادة تفسيرها ، لتساير أحدث القوانين المدنية وأحدث الدساتير الدولية. وقد أسست الحكومات الديموقراطية النيابية على غرار الحكومات الاوربية ، ولكنها تحاول ان لا تتعارض مع النظم والتقاليد الاسلامية . ومما يسترعي النظر ، ان اول مجلس نيابي في مصر سمي (الشورى) . وهي لفظة قديمة اختيرت خاصة لتذكر المصريين بمبدأ الديموقراطية في

الاسلام[1].

وتكفي هذه الملاحظات القصيرة للدلالة على ان الاسلام ، من حيث كونه نظاماً مدنياً ، قد توافرت فيه منذ البداءة مرونة تمكن المجتمع الاسلامى من التطور الطبيعي ، دون إهمال قواعده الاساسية ، باقراره حكم العادة والاجماع والاجتهاد ، هذه المبادىء التي تجعله يساير تغير الاحوال . وقد أعان هذا في السابق ، وما زال يعين ، على تطور القانون الاسلامي والنظام المدني نحو الرقي ، وجوابي على تساؤل الاستاذ سمث[2] : أيستطيع الاتراك ان يفعلوا ذلك ؟ هو انه لا سبب يدعو الى فرض عجزهم ، لأن مصر قد فعلت ذلك في عهد قريب مضى .

الرقي والاصلاح الاجتماعي

لم يَدَّع احد من المصلحين المعاصرين أن الاسلام عائق للمجتمع عن التقدم . فجمال الدين الافغاني في كفاحه السياسي والاجتماعي ومحمد عبده تلميذه ، وقاسم امين في دعوته الى تحرير المرأة ، قد أقاموا جميعاً حركاتهم على أسس اسلامية . وعندما كتب محمد اقبال كتابه النفيس « إعادة بناء الاسلام » قصد هو ايضاً المجتمع الاسلامي . وفلسفته صوفية ايجابية قائمة على مبادىء جلال الدين

(١) وهو المبدأ الذي وصف به القرآن المؤمنين إذ يقول : « والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وامرهم شورى بينهم » (سورة الشورى ٤٢ آية ٣٨) [المترجم]

(٢) انظر المحاضرة السابقة . [المترجم]

الرومي . و مـــن حيث انهم جميعاً تأثروا بالأفكار الغربية وواجهوها ، بان لهم انهم لا يستطيعون ان يبنوا شيئاً ثابتاً خارج نطاق الاسلام وقواعده . وقد كتب جمال الدين الافغاني في كتابه (الرد على الدهرية) يقول : « يجب ان تتحرر عقول الناس من كدر الخرافات وصـــدأ الأوهام » . ثم يورد دليله القرآني « ثانيـــاً ان تكون نفوس الامم مستقبلة وجهة الشرق طامحة الى بلوغ الغاية منه بأن يجد كل واحد من نفسه انه لائق بأي مرتبة من مراتب الكمال الأنساني ... ان دين الأسلام فتح ابواب الشرق للنفوس و كشف لها عن غايته .. وانبأ كل ذي نطق بوفرة استعداده لأي منزلة من منازلة الكرامة .. وقد لا تجد الاديان ما يجمع اطراف هذه القاعدة . فهذا دين برهما قد قسم الناس الى اربعة اقسام ، وقرر لكلٍّ منزلةً من كمال الفطرة لا يجاوزها . ومن الاديان ما يغلب اليوم على امم من البشر ، وفي اصوله تفضيل شعب خاص على بقية الشعوب كشعب اسرائيل مثلاً ، و كتابه المعروف يخاطب ابناء ذلك الشعب بالكرامة والاجلال ويذكر غيرهم بالتحقير والاهانة . ثالثاً : ان تكون عقائد الأمة وهي اول رقم ينقش في الواح نفوسها مبنية على البراهين القديمة والأدلة الصحيحة ... رابعاً : ان يكون في كل امة طائفة يختص عملها بتعليم سائر الأمة .. ثم طائفة اخرى تقوم على النفوس تتولى تهذيبها وتثقيف اودها[1] . »

---

(١) انظر كتاب الرد على الدهريين ص ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ٩٥ ، حيث وردت هذه النصوص (المترجم) .

وكتب جمال الدين يقول ان الناس جميعا ، مسلمين وغير مسلمين ، اخوان ، بعضهم اهتدى وبعضهم لم يهتد ، ولكنهم جميعاً اخوان يجب ان يعيشوا بوفاق .

لقد لخصت آراء جمال الدين لأنه كان مؤسس « الوحدة الاسلامية » التي توصف اليوم بأنها رجعية وضد الغرب ، ونحن نحتاج ان نعرف عن جمال الدين اكثر مما عرفنا . والواقع ان كتاباً عنه بالأنجليزية ينير أذهان الأمريكيين كثيراً ، لما أبدوه من اهتمام بحركة الاصلاح الاولى هذه في العالم الاسلامي ، ومما يجدر بالذكر ان قبر جمال الدين في استانبول قد أنشيء بمساعي احد الامريكيين [1] .

اما محمد عبده الذي كان له الخطر نفسه في حقل الاصلاحات الاجتماعية الاسلامية ، او اعظم منه ، فقد كان اشد تحفظاً ، وكان يعتقد ان التطور يجب ان يجري في مجراه الطبيعي دون تعجُّل . وكان تلاميذه اشد منه تحفظاً . ويبدو ان الخماسة الاصلية التي كان يحتاج اليها لاستئصال العشب الطفيلي وحرث الارض ، اصبحت غير ضرورية . وكان الصبر ولا يزال لازماً لانتظار البذور حتى تنبت .

وخليق بالذكر ان هؤلاء المصلحين الاجتماعيين كانوا جميعاً اساتذة وكتاباً اشتغلوا بالموضوعات الثقافية . وكفاحهم في سبيل تحرير المجتمع الاسلامي كان كفاح آراء . وكان بعضهم متأثراً

---

(١) هو المستر شارلس كراين (المترجم) .

بالغرب وبعضهم غير متأثر به ، ولكنهم كانوا جميعاً مقتنعين بانه لا شيء يمكن عمله ما لم يكن غرساً وتطعيما للفكر الاسلامي القديم . والاسلام لم يعرف حدوداً للثقافة منذ البداءة . فقد ورد في حديث نبي الاسلام « اطلب العلم ولو في الصين » ، و « اطلب العلم من المهد الى اللحد » . ومعنى ذلك ان الاسلام – إن لم يكن المجتمع الاسلامي – لم يكن قط عثرة في سبيل اي لون من ألوان المعرفة . واصبح هذا الامر الآن مرغوباً فيه اكثر منه في قرن مضى . والكتب التي ألفها طه حسين وهيكل وتوفيق الحكيم والعقاد تنبىء ان جميع الافكار الغربية ليست غريبة عن الاسلام ، وربما كان في هذا ايضاً إجابة لملاحظة الدكتور حتي انه غدا لا يسمع شيئاً عن المصلحين . ولعلهم يعتقدون انه لا بد لكل من يريد منهم إسداء الخير للمجتمع الاسلامي ، من العودة الى التقاليد الاسلامية ، واثبات ان تلك التقاليد فيها من روح الحرية ما في افكار القرن التاسع عشر الحرة .

وإذا كان الدكتور حتي قد لاحظ ان المصلحين الآن في مصر ساكتون ، فما ذلك ، كما ارى ، إلا لأنهم قد ربحوا المعركة ، فالتطور جار في مجراه . ومصر والعالم الاسلامي يشاركان في تراث العالم العلمي وفي الحضارة ، ولكنهما في الوقت نفسه يحاولان ان يتمسكا بقيمهما الروحية التي تزيدهما الايام اعتقاداً بانها ضرورية لهما ضرورة القيم المادية . ويمكنني ان اضيف ان المسلمين اليوم اشدّ إدراكاً لقيم التعليم الديني من أي وقت مضى . ويزداد وعيهم

لأهمية القيم الروحية وللمصائب المحزنة التي مُنيت بها اوربا بسبب إهمالها هذه القيم . وبانتشار الحضارة العلمانيـــة قد نقلت الى بلاد الاسلام – كما ذكر هـــذا الصباح الاستاذ بيارد دودج – تلك الآفات الاجتماعية التي تلازم عادة كل حضارة . ولا بد لقتال هذه الآفات من بعث القيم الاسلامية بين المسلمين . والمرء لا يستطيع ان يعيش على الخبز وحده سواء أفي العالم الاسلامي أم في العـــالم المسيحي .

الاسلام في تركيا الحديثة

بقلم جون كينجسلي بيرج

مدير دائرة النشر التابعة لمجلس مديري الارساليات الاجنبية »
استانبول – تركيا

●

ايها الرئيس واصدقاء الشرق الادنى : إني على يقين أنا سنزيل في هذا المؤتمر فكرة ان العالم الحديث والاسلام ليسا معنيين بسيطين . وإذا كنا لا نستطيع ان نصل الى تحديد دقيق ، فنحن على الاقل نستطيع ان نزيل التشويش مما يزيد في تواضعنا . وحتى اولئك الذين يظنون منا انهم اوسع علماً بهذه المباحث ستزداد رغبتهم في الدراسة كي يزدادوا دنوّاً بعقولهم وقلوبهم ، الى الشرق الاوسط الاسلامي ، دنواً فيه طابعُ التدرج والتعاطف . وقد سمعنا ان الاسلام دين ، وسمعنا انه دولة ، وسمعنا انه حضارة وثقافة ، وقيل لنا ان الاسلام ، حين يُنظَر اليه من داخل ، يختلف كثيراً عنه حين يُنظَر اليه من خارج ، ونستطيع ان

نذهب اكثر من ذلك فنقول ، ان لفظة «اسلام» نفسها ذات معاني محيّرة .

سيطرة الاسلام

إن اصول الاسلام ، من حيث هو دين ، راسخة في الاعماق ، وقد يتصور التركي انه يعيش في دولة غير دينية. وقد يذهب إلى أبعد من ذلك فلا يؤمن بالاسلام ديناً . ومع ذلك كله ، لا يزال عنده إحساس قوي يتصل باحساس الاسلام ، هو الذي يقرر اعماله . فأمَرْسُن مثلاً ربما داخله اليقين أنه تحرر من العقيدة النصرانية المتشددة في أمور الدين . ومع ذلك أليس صحيحاً انه كان من نتاجها ، وانه لا بدّ لفهم أمَرْسُن من فهم الكلفنية (Calvanism)[1] والبيوريتانية Puritanism [2]. وسيطرة الاسلام على التركي غير المتعلم اشد من ذلك . فتعصبه الديني واعتقاده بالخرافات يشملان اموراً ينكرها التركي المتعلم ، واموراً يراها حتى رجال الدين انفسهم مخالفة للنظر السني. ولكن هذه الآراء والمعتقدات بالذات ، هي التي تقرر اعماله وسلوكه .

دُهشت ممرضة شابة ذهبت حديثاً للعمل في احد المستشفيات

---

(١) الكلفنية : اتباع Jean Calvin الفقيه الكاتب المصلح الفرنسي ١٥٠٩ - ١٥٦٤ (المترجم)

(٢) البيوريتانية : تطلق على فرقة من البروتستانت الانكليز الذين اعتبروا اصلاح الكنيسة برعاية البصابات غير كامل ، ودعوا الى مزيد من الاصلاح والتطهير (المترجم) .

بتركيا ، لكثرة عدد الالبسة التي يرتديها القرويون . فقد كانت اكثر مما يحتاج اليه المرء للدفء وذكرت لي هذه الممرضة ان كثرة الألبسة ، قد ترجع الى الاعتقاد بان ذلك الجزء من الجسم الذي يُعرّى ، هو الجزء الذي يحرق في جهنم . وهذا الاعتقاد لا علاقة له بالعقيدة الاسلامية السنية ، ولكن بوصفه اعتقاداً دينياً ، قد يؤذي صحة مئات الالوف من الناس القاطنين داخل تركيا . وهذا المثل يدل على ما ينكره المسلم المتعلم من امر الخرافات ، ولكنه مهم لأنه جزء من اعتقاد الناس يؤثر في سلوكهم . وهذه الناحية من الاسلام ايضاً يجب ان تُفهم . والتركي المتعلم ، او المسلم المتعلم في بلاد اخرى ، قد يجهل هذه الاعتقادات لانه لا يؤمن بها ولا يفهمها الا من ينظر اليها بعناية ويجهد نفسه في البحث عنها .

ماذا اعطى الاسلام تركيا

اريد وأنا اتحدث عن الاسلام والجمهورية التركية ، ان ابحث امرين : الاول ، ماذا فعل الاسلام لتركيا ؟ والثاني ، كيف اثرت تركيا بالدين الاسلامي . وهذا ما سأبحثه بتوسع .

ترد في تاريخ تركيا اشارات كثيرة الى روح الطاعة التي كان الشعب التركي يظهرها نحو السلطة . وقد أدى هذا في القديم إلى الاستقرار السياسي . وربما كان ايضاً من جملة العوامل التي حققت للجمهورية التركية اليوم قوتها واستقرارها . وربما كان لروح

الطاعة هذه اصل في الاسلام . ويذكرني هذا بقصة كنت اقرؤها اليوم عن طبيب عاش في اوائل القرن الماضي في حكم محمود الثاني . فقد ذكر كيف ان جميع الذين قابلهم أبدوا احتقارهم للسلطان . وقال بعضهم إنه يود الذهاب الى مصر ليسكن فيها ، ولم يشاهد الطبيب طاعة منظمة للسلطة في تجاربه التي ذكرها . ولكنه عقّب على ذلك قائلاً : انه في حالة غزو المشركين للبلاد ، يتحوّل كل واحد من هؤلاء النقـــاد الى الرأي بان القتال من اجل السلطان والموت في سبيل السلطة التي لها عليه الطاعة ، هما شرف له . ومن الطريف ان تلاحظ ان القصص التركية التي تروى عن قتلى الاتراك في كوريا تستعمل العبارة نفسها التي كانت تستعمل في اثناء الحرب العالمية الاولى وهي : 'قتل شهيداً . فهل يعتقد القوم اليوم ان الجنود الذين يموتون في ساحة القتال يذهبون إلى الجنة ؟ من يدري؟ ومن الصعب الحكم بان الجندي نفسه يدري . بيد ان الأسر التركية اليوم ، ما تزال تشعر بالراحة من أثر ذلك الاعتقاد . وفكرة ان الموت في المعركة في سبيل العقيدة والوطن (لأن معنى العقيدة والوطن يكاد يكون واحداً) يضمن الحياة في الآخرة ، ما تزال مؤثرة في حياة الجنود اليوم . وعلى ذلك يكون مبدأ فضائل الجندية التي تستلزم الطاعة الصارمة للسلطة جزءاً مما قدمه الاسلام لتركيا .

وانا اعلم الآن ان هذا الامر ليس دينياً محضاً ، وان له مسحة جنسية . ولكن هـذا المثل الاعلى الذي تحدر عن المجتمع بمختلف

سكانه ، قد نال موافقة الدين ، ويمكن اعتباره من الامور التي قدمها الاسلام الى الجمهورية التركية الحديثة .

ماذا فعلت تركيا بالاسلام

لقد ألفنا الدور الذي اجتازته تركيا نحو العلمانية بحيث يغرب عن ذهننا بعض عناصره ، ولأذكر الخطوات المهمة التي خطتها البلاد نحو العلمانية . ففي شهر مارس سنة ١٩٢٤ ألغيت الخلافة . وكان معنى ذلك ان تركيا تنازلت عن قيادة العالم الاسلامي ، لكي تتجه نحو الغرب . وفي السنة نفسها ألغيت وزارة الأوقاف والقوانين الشرعية والمحاكم الدينية .

وعندما تغيرت القوانين القضائية بعد ذلك بقليل ، تغيرت معها القاعدة الاساسية للقانون جملة . واذا كانت الشريعة هي مركز الحضارة الاسلامية ، فان هذا المركز قد ازيل الى الابد . وقد أقفلت مدارس الدين وسلمت الى إدارة المعارف .

وفي سنة ١٩٢٥ الغي الطربوش . واذكر جيداً اوائل تلك الايام في « الكلية الدولية » في إزمير حين كان خروج احد الطلاب الى ساحة الكلية ، لا الى المدينة نفسها ، والقبعة على رأسه ، يقيم المدينة كلها ويقعدها . فقد كان خلع الطربوش ولبس القبعة إشارة الى ترك الدين . وقيل لي إن عالماً من اعظم العلماء في تركيا لم يلبس القبعة قط . وكان عند مغادرته مكتبته في المساء يلف رأسه بلفافة كأنه مصاب بالم شديد في الاضراس . وكان الملاحظون

يستخلصون ان الرجل لن يضع القبعة على راسه في اي حال . فقد كان التعصب ضد البدع الغربية بالغاً الغاية .

واقيم اول تمثال لأتاتورك سنة ١٩٢٦ . واذكر جيداً الجدل الطويل ، القائم على النصوص الدينيه ، في صحة اقامة التمثال . ومع ان منع التماثيل والصور لم يكن جزءاً من الاسلام حسب مذهب أهل السنّة بل كان جزءاً من عقائد القوم النافذة. ويذكر (فمبري) Vambery [١] وهو معدود من اعاظم من درس تركيا ، انه شاهد امرأة يغمى عليها حين اعطيت صورة ابنها الذي كان يدرس في اوروبا. ويرى (فمبري) انها صُدمت صدمة عنيفة حين رأت ابنها في زيه المحرَّم حتى فقدت شعورها .

✓ وفي سنه ١٩٢٨ حوّر الدستور لكي تحذف منه الاشارة الى ان الاسلام دين الدولة . وفي السنة التالية لها ألغي تعليم الدين في المدارس . وفي سنة ١٩٣٣ أُلغي قسم الدين في الجامعة . وفي سنة ١٩٣٤ مُنع لباس رجال الدين . وفي سنة ١٩٣٧ نُصّ على العلمانية في الدستور . والنظام العلماني كله كان ذا تأثير بارز في عمل المساجد. ففي عهد العظمة التركية كان المسجد مركزاً اجتماعياً . فمسجد محمد الفاتح مثلاً كان على جانبيه كليات ومستشفى ومركز لتوزيع الطعام وخان . وعلى رابية اخرى كان يربض اوسع المساجد اطلاقاً ، وهو مسجد سليمان القانوني ، الذي كان حوله

---

(١) : Armin Vambery مستشرق ورحالة مخاطر هنغاري . تخفى وساح في اواسط آسيا ، ودون مخاطراته ، وألف عدداً من الكتب المهمة عن الترك وتاريخ بخارى (المترجم) .

عشر مؤسسات منها اربع كليات . والمدرسة (المدرسة الدينية) لم تكن مدرسةً دينية كما هو مفهوم في عرفنا . لقد كانت وحدة للسكن . وكان المسجد غرفة للدرس وقاعة للمحاضرات . وكان يمكنك ان ترى ، لعهد قريب ، اساتذة جالسين في صحن المسجد في الصيف ، وفي المسجد نفسه في الشتاء ، يدرّسون جماعات صغيرة من الطلاب . اما اليوم فقد تحولت هـذه المدارس الى مراكز لتوزيع الحليب ، واندية رياضية ، وغرف للنوم بادارة علمانية ، في حين تركت المساجد لتكون مراكز للعبادة ، والى حد ما مراكز للثقافة الدينية .

ويبدو لي ان تأثير العالم الحديث هذا ، كان هدّاماً ، لأنه ادّى إلى فصل الخدمات الاجتماعية عن المسجد . ويشوقنا أن نرى: أتبعث تلك التقاليد القديمة التي كانت للمسجد، في هذا الوقت الذي يحاول فيه الاتراك ثانية ان يتخذوا من الدين قوة باعثة ، الى أداء الخدمات الاجتماعية التي دخلت البلاد بتأثير العالم الغربي الحديث ؟

لقد جرت عدة محاولات في تركيا لاصلاح الدين نفسه، ومنها محاولة صبغ العبادة بالصبغة القومية . التي ابتدعها ونفذها الرئيس العظيم كمال اتاتورك . فبين سنة ١٩٢٤ وسنة ١٩٢٨ وضعت ثماني ترجمات للقرآن باللغة التركية ، وفي سنة ١٩٣٢ ادخل اتاتورك تلاوة القرآن في الجوامع بالتركية . ومنذ ذلك الوقت الى العام الماضي كان القانون ينص على وجوب الأذان بالتركية . ولكن هذا الاصلاح لم يستمر طويلاً . ويُؤذّن الآن باللغة العربية .

ولا أذكر اني تحدثت إلى تركي واحد يرغب في قراءة القرآن بالتركية . فالقرآن مايزال يُقرأ بالعربية : بلا ترجمة ، ولا شرح ، فهو عبارة عن كلمات لا يفهمها الأتراك . ومع ذلك تثير كلماته حين تتلى بالعربية ، عاطفة حقيقية .

وفي سنة ١٩٣٠ عيّن قسم الدين في جامعة استانبول لجنة لتقترح برنامجاً دينياً على أسس إصلاحية كاملة . واقترحت اللجنة جعل التركية لغة العبادة ، وتدوين الصلوات كي يمكن قراءتها ، واستعمال الموسيقى الصوتية والوترية الحديثة والقديمة ، وبعوثاً للوعظ ، ومقاعد في المساجد ، وغرفاً لحفظ امتعة المصلين ، وجواز لبس احذية نظيفة في المساجد . بيد ان اللجنة سرعان ما الغيت ولم يسمع شيء البتة عن هذه المحاولة الجريئة للاصلاح . فهل كان البرنامج الذي اقترحته متطرفاً جداً ، ام أن رئيس الجمهورية لم يبْغِ إصلاحاً إسلامياً ، بل أراد ان يضرب الاسلام من اعمق اصوله ، ويزيل أثره من اذهان الشعب ؟ لا احد يستطيع ان يدلي بجواب .

وفي خلال السنوات القليلة الاخيرة ، اخذ الاتجاه يتحول الى الناحية المعاكسة . وقد أُجيب بعض مطالب زعماء المسلمين السنيين وأولها إدخال تعليم ديني مراقب ، وكانت الفكرة أصلاً ان يكون تعليم الدين للصفين الرابع والخامس اختيارياً ، لا يحضره إلا الطلاب الذين يبرزون رسائل من آبائهم تظهر موافقتهم . ويقوم المعلمون بتدريسه في غير ساعات المدرسة . ويُتوقع بفضل النظام الدقيق

الذي وُضِع ، ألا تتولى شؤونَ تعليم الدين ، العناصرُ المتعصبة التي قد تسعى لارجاع القانون الديني القديم والغاء الاصلاحات التي أجرتها الجمهورية . وفي هذا العام جعل تعليم الدين إجبارياً . وعلى الآباء الآن ان يقدموا رسائل يطلبون فيها إعفاء ابنائهم من حضور درس الدين حتى يسمح بتغيبهم عنها . وثاني المطالب التي لبتها الحكومة تأسيس قسم لتدريس الدين في جامعة انقرة . ويقال ان هذا القسم سيكون حديثاً وعلمياً . فاذا تحقق ذلك ، وجب تعليم موضوع «الدين المقارن» ووجب ان يُسمح بتدريس نقد النصوص والنقد التاريخي . وحينئذ يجب ألا يقع قسم الدين رهن الضغط نفسه الذي عاناه موضحو المسيحية الحرة في القرن الماضي !

وماذا كان اثر جميع هذه الاصلاحات الناجحة والاصلاحات التي حاولوا إجراءها في الدين الاسلامي نفسه ، وماذا كان اثر الغرب ؟ لديّ هنا مجلة اسمها « صوت المسلم » تصدر في تركيا . وفيها مقال افتتاحي بقلم استاذ مسلم تقيّ يقول فيه بعبارات في غاية العنف إن القواعد الاجتماعية والاخلاقية للجهاز السياسي ، قد مرت في دور من المحنة العنيفة بحيث فقدَ الشيوخ الاحترام وفقد الشباب الطاعة ، ومستوى المعاملات قد انحط كثيراً ، وظهرت فوضى في الحياة الاجتماعية . والامل الوحيد الذي يراه ، هو العودة إلى الدين . اما تأثير العالم الغربي ، العالم الحديث ، في الاسلام فيبدو من روايته عدداً من الاسئلة وجهت إلى بعض اساتذة العلوم الطبيعية الاميركيين . وهو يعيد اجوبتهم ناقلاً عن

الكسيس كارل . ويحاول هذا الاستاذ في مقال تالٍ قائم على تعاليم كارل ان يجر الناس إلى ما يحسبه خليقاً بانقاذهم من آثار العلمانية الغربية ، ذلك ان يستمدوا الوحي من العالم الغربي فيعودوا إلى فهم الدين الاسلامي فهماً اعمق واصلح.

وتأثير العالم الحديث يبدو في التوكيد على الاخلاق في الكتب المدرسية الدينية . والاساليب الغربية في تدريس الدين تتضح في استعمال الشعر والقصص . وقد طلب الينا ان نرسل اليهم كتب التعليم الديني المستعملة في الولايات المتحدة كي يطبّقوا اساليبنا في التعليم الديني التركي . وكل ذلك محاولة لتوجيه ايحاء ديني جديد إلى العقل العلماني الذي يرجع إلى الماضي القريب . اما محتويات الاسلام فتبقى على ما هي عليه ، وإن كان ثمة افراد قد يستحسنون في سرائرهم التنقيح . وقد ذكر لي مرة مؤلف كتاب ديني ، رأيه الشخصي بشأن فروض الاسلام الخمسة (الايمان بوحدانية الله ، والزكاة ، والصلاة في أوقاتها الخمسة ، وصوم رمضان ، والحج) . أن اثنين منها واجبان اليوم ، هما : الايمان بوحدانية الله والزكاة . وهو يرى وجوب فتح باب الاجتهاد. وهذا هو رأيه الشخصي الذي لا يرغب في إظهاره علانية . ومع ذلك فان كتباً ، ككتب الكسيس كارل ، وكتاب عودة الدين لـ « لِنْك » ، وكتاب طمأنينة العقل لـ « ليبمان » المترجمه إلى اللغة التركية ، هي الوساطة التي يؤثر بها توكيد الغرب على الدين في تقوية العقيدة الدينية الاسلامية، من الناحية الروحية ، وهي باعتقادي اهم من القانون

الديني الذي هو قلب الاسلام .

وختاماً اود ان اشير إلى انه مهما كان الاسلام ثقافة او حضارة فانه من حيث الجوهر دين . ولا يكفي ان يكون الرجل المتجدد في الغرب ، او الرجل المتجدد في البلاد الاسلامية ، او المسلم الذي لم يتجدد ، متسامحاً فحسب . وهذه القضية من حيث هي قضية دينية ، لا يمكن ان تُحل إلا على اساس الدين . ونحن الغربيين يجب ان لا نكون متسامحين فحسب ، بل مشفقين ومتفهمين ايضاً . وانا اضع على حائط مكتبي آية من القرآن. ولدي كذلك حديث نبوي . وأحب ان اتخير آيات أخرى من القرآن تحرك بي الالهام الديني . ونحن محتاجون ان نتفهم الآيات القرآنية الجميلة ذات المعنى الديني العام الذي يلائم كل إنسان .

وإني، كذلك ، اتطلع الى الوقت الذي يأخذ فيه المسلمون من العالم الغربي الحديث، الآثار الدينية التي تعين على تقوية إيمانهم بالله. فكل واحد منا يستمد القوة من الآخر ، لا من حيث زيادة التسامح – فهذا امر قد لا يكون له شأن – بل من حيث تقوية العقيدة الدينية التي تستطيع ان تجعل من الأخوة الانسانية حقيقة اقوى واثبت تحت ظل الله ، إله العالم الحديث والاسلام .

اهتمام الولايات المتحدة الحربي بالعالم الاسلامي

بقلم وليم ياندل إليوت
استاذ التاريخ وعلم السياسة في جامعة هارفارد

●

اود ان أعود لحظات الى زيّ الأستاذية فأقول إني لا اذهب الى جعل الاسلام ، بوصفه ديناً ، قضية حربية (ستراتيجية) للولايات المتحدة بحال من الاحوال . وسأحاول ان احصر معالجتي الاسلام ، موضوع مؤتمركم العام ، في امر علاقته بالناس الذين هم عنصر ضروري في اية خطة حربية . واشعر الليلة بشيء من الحرية للتحدث في الشؤون الحربية وفي شؤون اخرى ، لأن الرئيس اشار ان اتناول الموضوع من جهة عامة . قال الدكتور جونسون ، ان الوطنية هي آخر ملجأ للئيم . وعلق روسكو كونكلين على هذا المثل بقوله : ان الدكتور جونسون لم يسمع في ذلك الحين عن الممكنات التي تتحملها لفظة « الاصلاح » . وعلى ذلك اظن اننا نستطيع ان نرجع الى الخطط الحربية فنقول : ان التحدث بمصطلح

الخطط الحربية وحدهـــا ، طريق للتملص والالتجاء الى مبادىء الغموض ، ان لم يكن الى الجهل المطبق .

ولكن الرأي الوحيد الذي كونته في اثناء الحرب الماضية ، هو ان الخطط الحربية للعالم اجمع ، وللعالم الغربي على وجه التحقيق ، قريبة من التمركز في هـــذه المنطقة التي تسمى ، بحق : الشرق الاوسط او الأدنى . وثمة ثلاثة امور اود ان اركز الحديث فيها هذه الليلة ، وهي : شعب الشرق الاوسط ، موارد الثروة في الشرق الأوسط ، واخيراً خطط الولايات المتحدة الحربية ، والمقدرة على اطعام جنود الميدان وايوائهم في الشرق الاوسط .

الشعب :

إذا عدت إلى المصادر ألتمس استشارتها ، كما يفعل الاساتـذة عادة ، فاني أقرأ التقرير الحديث الذي أصدره معهد «بروكنجس» Brookings Institution بعنوان « أمن الشرق الأوسط » ويخبرنا هذا التقرير أن امامنا الاحتمالات الآتية : الاحتمال الاول ، ان نستشير الدول الأخرى ، شرط ان نعمل منفردين . والاحـتمال الثاني ، ان نعمل بالاشتراك مع بريطانيا حسب العادة التقليدية في معالجتنا سياسة الشرق الأوسط (وما اظن انها لم تكن موفقـــة دائماً) . الاحتمال الثالث ، ان نعمل بالاشتراك مع بريطانيـــا وفرنسا (لاحظوا انه لم يبق احد يقيم وزناً كبيراً لفرنسا بحيث يمكن الاشتراك معها في العمل) . الاحتمال الرابع ، ان نعمـل

بالاتفاق مع جميع الدول الصديقة . وهذا يعني ان نرضي الجميع ، ولم يكتشف احـــد كيف يمكن الوصول إلى ذلك . الاحتمال الخامس ، ان نؤثر العمل بوساطة الأمم المتحدة . وارى ان هناك احتمالاً آخر اهم من الاحتمالات السابقة ، وهو أساسي بقدر كونه عسير التحقيق : ذلك هو ان نعمل ، قدر الامكان ، مع شعوب الشرق الأوسط ــ ان نعمل شيئاً كان ، حتى الآن ، فوق طاقتنا وقدرتنا .

لقد سرني كثيراً مـا قاله الدكتور بيرج عن الأتراك . وإني لأذكر ضابطاً نمساوياً عرفته في هايدلبرج ، رجلاً ممتازاً ومدهشاً ، وقد ساعدته فيما بعد على الهرب من النازيين . لقد كان رجلاً عظيما وفيلسوفاً كبيراً خدم مع الأتراك . قال لي هـــذا الرجل عن الأتراك : « هؤلاء اعظم ناس مهذبين رأيتهم في حياتي . » وأظن ان هذه شهادة طيبة . إن لهم مبدءاً يحافظون عليه ، جاءهم إما من الاسلام وإما من هذه الأمور جميعها التي وضعها الدكتور بيرج . وهم كما يبدو لا يزالون يحافظون عليه والحمد لله . ويبدو لي ان هنا معقلاً منيعاً لا يُقوَّم بعدد الفرق وحدها ، بل بروح هذا الشعب التي يتعذر التغلب عليها .

واني لأعلم ان هنـــاك مشكلة تتعلق بكونهم الجناح الأيمن لأوروبا ، او الجنـاح الأيسر للشرق الاوسط . ولكن مهما كانوا هم ذلك المعقل المنيع . ثم هناك اليونان الذين بدأوا صفحة جديدة في الحياة كما ارجو . وهم ايضاً شعب قوي جداً . والشعوب العربية

بوجه عام ، من هذه الناحية ، تدلل من جميع الوجوه على انها ، اذا دُرّبت ، تقاتل مع من تحالف قتالاً ممتازاً . ولكن ليس لديها السلاح ولا العتاد ولا التقاليد او الأسس التي يمكن ان تجعل منها جيوشاً حديثة . وهي فوق ذلك كله قد فقدت الوسيلة التي تبدو ضرورية لأثارة حماستها القومية الحقيقية .

وإني لأتساءل: ماذا تعني الوحدة الاسلامية من حيث الكيان الحقيقي اليوم ؟ فلكي تكون ذات تأثير يجب ان تثبت وجودها اكثر مما فعلت الجامعة العربية . ويلوح لي – إن جاز أن اتكلم دون ان اسيء الى احد – ان المملكة الاردنية الهاشمية ليست شريكاً يسعده ان يجلس مع الآخرين ، وان سوريا والسعودية العربية لا تمثلان الأسد والحمل مجتمعين معاً ، وان العراق ليست راسية تماماً في جميع اتجاهاتها السياسية مع اي أحد ، حتى ولا مع مصر التي تقع في الطرف الآخر . واذا كنتم تتحدثون عن قوة الاسلام السياسية فانا على الأقل شديد الحيرة كيف أزن ذلك . وإني لواثق أن الاسلام ذو معنى ، معنى داخلي عميق ، بيد أنه من الناحية السياسية ما الذي يستطيع ان يفعله الاسلام حقاً ؟ فمن ناحية مشاكل الشرق الاوسط – ولنضرب لها مثلا مشكلة علاقة الباكستان بالهند التي تنطوي على قضية إنتاج القنب ومصير كشمير – الى اي حد يمكن جعل الاسلام عاملا قاطعاً فيها ؟ هذا هو السؤال الذي ما أزال ألح في طلب الاجابة عنه . ولا اظن ان الجواب حتى الآن كان مرضياً .

إن حقيقة الشرق الاوسط السياسية ليست مقصورة على الاسلام وحده . فان اسرائيل تجتاز تطوراً خطيراً جداً تدفعها فيه الهجرة غير المحدودة الى صعاب تبدو واضحة في الظاهر، ولكنها في الباطن معقدة وعميقة جداً . وحالة كهذه تقتضي حتماً إعادة التنظيم عن طريق السيطرة الداخلية احياناً وقد يكون عن طريق المخاطرات الخارجية أحياناً أخرى . وهي بهذه الحالة مقدمة لتوسع خارجي من ذاك النوع الذي ترون موسكو تمارسه بخططها الحربية الخاصة في جميع الشرق الاوسط . وهنا عنصر آخر أود أن أسترعي إليه انتباهكم لتعالجوه ، لا أعرضه بمعادلات سحرية ، ولكني اسأل كيف سيجد رجال وزارة الخارجية المرهقون حلاً له ، إن كان له حل ؟ لقد نجحنا في جعل الوضع في فلسطين مستقراً في الوقت الحاضر . فليس هناك قتال علني ، والبلاد المقدسة هادئة من حيث كونها مشكلة ، مع ان الروس وجدوا وسيلة للتدخل بتسلمهم رعاية مصالح الروس الارثوذكس في البلاد . وتوليهم شؤون الأماكن المقدسة في القدس، ورئاء للكنيسة اليونانية الأرثوذكسية، يشبه كثيراً — كما أعتقد — تولي الشيطان تلك الشؤون . وعلى كل حال فهذا الذي حدث بالفعل .

موارد الثورة — النفط والماء

أما ما يتعلق بنفط الشرق الاوسط ، فانه من الواضح أن مشكلة الاتحاد السوفياتي كلها تعتمد إلى حد كبير على النفط .

ولن أعالج الليلة مواد ذات قيمة استراتيجية أخرى ، مع انها ذات اهمية لنا ، مثل الكروم ، والدخان التركي الذي كانت له أفضلية في قائمة الشحن البحري اثناء الحرب الماضية ..

إن الشرق الادنى خليط غريب من النفط والماء — الماء بوصفه ضرورة لاستغلال الارض . والنفط بوصفه الوسيلة لتمويل المشاريع المائية . والنفط ضروري ايضاً لأوروبا، واني لا أعرف بديلاً مناسباً عنه في الشرق الاوسط لمدّ اوروبا بالنفط الذي تحتاج اليه . وانه لمن الصعب جداً تقليل استهلاك البترول في القسم الغربي من العالم الى الحد الذي يمكن معه سدّ حاجة اوروبا من النفط . اما حال السوفيات فأكثر تعقيداً . ولكن حاجتهم الى النفط واضحة جداً . لقد ذكر ستالين لجماعة كنت لحسن الحظ فيها ذات ليلة ان إنتاج السوفيات للنفط في سنة ١٩٤٥ كان نحو ١٩ مليون طن . وقد كان الرقم الرسمي في ذلك الوقت ٢٣ مليوناً . وقد كانت وزارة الخارجية ودائرة الاستخبارات تظنان انه ٢١ مليوناً ولكن ستالين الذي أعدّه حجة في هذا الموضوع قال انه ١٩ مليوناً . ومنذ ذلك الحين الى الآن ربما ارتفع استخراج البترول الى اكثر من ٣٠ مليون طن . ولكن منذ ذلك الحين أيضاً قد ارتفع استهلاك البترول في الولايات المتحدة الى ما قد يكون اكثر من ٣٠٠ مليون طن ، وهذه الارقام ذات دلالة عظيمة للغاية . وربما كانت اعظم اهمية من ارقام الفحم واعظم ، الى حد اكبر من ارقام الفولاذ . لان كل جيش حديث غير متحرك ، إنما يتحرك

بالنفط . ومن المحقق انه لم يكن من محض المصادفة – او على الاقل انه لذو مغزى – أنه في اليوم الذي دفن فيه رئيس وزراء ايران رازماره الذي كان يميل الى الغرب ، صوتت لجنة في المجلس النيابي على تأميم البترول . ولست الآن في وضع يمكنني من وزن قيمة هذا « اللعب » الذي يجري هناك ، ولكني افهم ان مسألة تصريف النفط البريطاني في إيران ذات اهمية عظيمة ، ولابد من ان تكون قد ازعجت وزارة خارجيتنا كثيراً . إن البريطانيين لم يستطيعوا ان يعقدوا اتفاقاً بشأن عائدات النفط يكون مرضياً لكي يتجنبوا هذا المأزق . وماذا ستكون النتيجة ؟

إن خطط الاتحاد السوفياتي فيما يتعلق بنفط الشرق الأوسط ، على نوعين ، ولها حظ من النجاح إن لم يقضَ عليها : أحدهما ، هو الطريق السهل للحصول عليه باستغلال الوطنية في الشرق الاوسط وإيقاظ الوعي عند الشعب الذي يستطيع على التحقيق ان يحصل على اكثر الفوائد ، ولكنه يرتكب خطأ طبيعياً بظنه ان الروس عازمون على منحه تلك الفوائد . وليس أحد ممن تجاوز الستار الحديدي تجوز عليه هذه الخدعة . ولكن الناس الذين هم خارج هذا الستار على استعداد لتصديقها . إن « التحرر » على الطريقة الروسية هو نوع من الدعاية الطبقية لا يزال مؤثراً في الخارج . اما الغرب « فمستثمر » قديم مبتذل وهو الآن ضعيف . إن ممكنات روسيا العجيبة لا يصدقها إلا من يختبرها بنفسه . ومن عرين الاسد ، كما

يقول ايوب ، « لا توجد آثار العودة[1] »

اما النوع الثاني فهو الطريق الأقصر ، ويكون بالاستيلاء على النفط بالقوة . وهذا ايضاً قد تحقق في بعض الحالات وعند الضرورة – كما حدث في بلاد البلطيق .

وهذا يصل بي إلى قسم الماء في المجموعة التي ذكرتها . وإذا أُريدَ حل مشاكل السكان في الهلال الخصيب فإن الماء عندئذ لايقل أهمية عن النفط لسكان تلك المنطقة . وسيوضع النفط ، بمساعدة العائدات ودفعات اخرى ، في خدمة الماء . والمشكلة بالطبع هي انه كيف يتحقق هذا مع الحكومات ذات العلاقة ؟ وانه لمن الضروري أن نجد شيئاً اكثر من معادلة سحرية . يجري حديثٌ عن اصلاح الأراضي ، ولكنَّ اصلاح الأراضي في تلك المنطقة ، بدون مشاريع ري ضخمة وخطط مرتبة مركزة ، يكون بلامعنى . ومن الواضح انه لأجل تحقيق هذه الاشياء يجب ان لا نكتفي باعداد الطبيعة لذلك ، بل يجب أن نُعدَّ الحكومات أيضاً لكي تقتنع بعمل ما لم ترض حتى الآن أن تعمله في هذه المنطقة : وهو أن تنفق أموالاً كثيرة في مشاريع نافعة .

---

(١) المثل اللاتيني : Nulla vestigia retorsum وبيانه ان الاسد في مرضه اخذ يفترس عواده . فلما عاده الثعلب وقف دون الباب . وحين سأله الاسد عن سبب ذلك اجابه : اني ارى آثار اقدام كثيرة تدخل بيتك ولم أر أثراً لقدم واحدة خرجت منه ! والعبرة منه : السعيد من وعظ بغيره . (انظر قصص ايوب ترجمة مصطفى السقاوسعيد جودة السحار رقم ٣٧ ص ٦٢) «المترجم»

الخطط الحربية وإطعام الجنود وإيواؤهم في الميدان

ما هي خطط امريكا الحربية في الشرق الاوسط ؟ إني لواثق أنه يجب علينا إما ان نعدّ أنفسنا لاتخاذ موقفٍ معيّن ونقول: إن اي تعدٍّ يقوم به الاتحاد السوفياتي هو « فرصة سانحة » وأن نضع جيوشنا ، إن امكن ، في مراكز بحيث تصد الاعتداء ، واما أن نعدّ انفسنا لاتخاذ موقف آخر عندما تنشأ حالة تطلب منا تعيين موقفنا ، وهو أمرٌ لا بد من حدوثه . وإذا نشأت حالة تقتضي ان تقوّض حكومةً ما – وإنه لمن السهل جداً تقويض حكومة في بعض الحالات – فذلك احتمال خطير . وأنا اعلم ان مثل هذا الموقف اصبح غير مستساغ في امريكا . ونحن اليوم « نهدي » الناس بمواعظ اخلاقية ، وبهيئة الامم المتحدة ، وبذلك النوع من التوسل الذي لم تنجم عنه كبيرُ فائدة ، في القيام بعمل مشترك نحو كوريا سوى القول إن الصينيين كانوا معتدين ويجب ان يستحيوا مما فعلوا . والآن افهموا ما تشاؤون – فهذا الصراع هو من النوع الذي يتطلب حلاً مختلفاً عن المواعظ الاخلاقية . اجل لنكافح في سبيل هؤلاء الذين يريدون ان يكونوا احراراً والذين يقاتلون في سبيل حريتهم. ولنؤازرهم بكل وسيلة ممكنة،ولنواجه المشكلة في هذا الضوء .

وإذا تبقى لدينا وقت فمن الضروري لهذه البلاد أن تعيد تقدير حركاتها الحربية وخططها الحربية في داخل الشرق الاوسط ، وان تبين مركزها باية وسيلة تتيسر لها من وسائل المساومة . إن

برامج النقطة الرابعة قليلة الاثر إذا قيست بهذا المقياس : الوقت وخطورة المشكلة . ومن الجلي ان علينا ان نبحث عن حل أجرأ . بيد أنه لا فائدة مطلقاً من صب أموال لا نهاية لها في ما يشبه ثقب الفأر – نعم انه لثقب الفأر ، واني لأستعمل هذا الاصطلاح بلا تحفظ – إذا كان صب الأموال لا يعني سوى زيادة سيارات الرولز رويس في باريس . واني ارجو الا اقول سوءاً بحق احد ، ولكن كلما أسرعنا في إدراك تلك الحقيقة ، استطعنا ان نواجه عدونا القاسي الذي لا يرحم – متحدين كما ارجو . من يستطيع ان يعطيني معادلة فعّالة تناسب افكارنا المهذبة في عدم الاساءة الى الحكومات – حتى باعطائهم مالاً – لاننا نخشى ان نسمى استعماريين ؟

اما بشأن ايواء الجيوش واطعامها في الميدان – فقد كان علينا ان نرسل سفناً حول افريقيا في اثناء الحرب الاخيرة ، وقد كلفنا ذلك نحو ١٣٠٠٠ ميل لكل سفينة ، وكان معنى ذلك ان يكون عندنا بواخر كافية لأداء تلك المهمة . إنا لنجلب موارد العالم لبلادنا ثم نصب مواردنا نحن في تلك البلاد . واظن ان قليلاً من الناس قد ظنوا اننا لسنا كرماء – مع اننا لا نحصل بوجه عام على شهادة افضل من اننا اغبياء . إن المواد ذات القيمة الحربية في العالم توجد في مناطق كثيرة ، وليست محصورة في الشرق الاوسط . إن حرمان الروس النفط هو جزء من مشكلة تموين الجنود. وليس من المستحيل ان نمنع النفط عن الروس حتى لو كلفنا الاحتفاظ

بمناطق البترول غالياً . ولكن قد نعجز عن ذلك ، إلا اذا زدنا قوانا باسرع مما فعلنا حتى الآن . وفي هذه الحال تصبح قناة السويس ذات اهمية بالغة . وهذه المسألة لا تخص بريطانيا وحدها. فان سلامة قناة السويس ضرورية لاي نوع من الدفاع عن ذلك الجزء من العالم ، إذا كنا لا ننسحب الى داخل حدودنا على نحو ما يذهب المستر هوفر . ولذلك أرى أنه ما دمنا سنمنع النفط عن روسيا ، لا بد من المحافظة على الملاحة في البحر الابيض المتوسط ، ولهذا السبب تصبح تركيا وقناة السويس جد خطيرتين لأية خطة حربية ، او للمحافظة على حرية العالم ،وهو الافتراض الذي نلتزمه .

وأظن أن هذه البلاد اليوم ليست في وضع يُستخف به . ولكنها تتباطأ – انها تتخاصم داخلياً عندما تهدأ الحركات الحربية في كوريا . وعندما يحرز نجاح حربي يتراخى الشعب ويعتقد انه يستطيع ان يخاصم بعضه بعضاً . والمحنة لا تأتي إلا حين يأتي التراخي – عندما تفوتنا فرصة عمل ما نحتاج إلى عمله . ان سلامة تموين الجيوش في الشرق الاوسط يقتضي وجود قوة جوية ذات فعالية ملائمة. وربما كان حتى هذا عائقاً غير كاف ، لأنه من المحتمل ان نفقد تفوقنا الذري . إن جميع المناورات السلمية ، وضروب التمويه ، والمظاهر الخارجة ، لا معنى لها على وجه الاطلاق ما دام هنالك ٢٠٠ فرقة روسية متحركة ونحو ٨٠ او ٩٠ فرقة من فرق الدول التابعة لها ، وانتاج للاسلحة بما فيها من الطائرات – اعظم من انتاج جميع بلدان العالم . إن هذه امور قاسية ، إنها إمور

ليست سارة ، انها ليست من الامور التي يمكن ان تبحث حول مائدة طعام شائقة . إن ضعف الرأسمالية قد يكون سر نجاحها ، وهو انها تهدىء نفوس الناس. ولكن انتم ياسكان الشرق الاوسط الذين عندكم القدرة على تكوين حضارة عظيمة ، وعندكم الموارد الكافية لأقامة حياة ٤٠ – ٥٠ مليون نسمة بصحة جيدة ، في حين لا تقيمون حياة اكثر من ١٠ – ١٢ مليون – ألا نستطيع ان نعتمد على قيادتكم وعلى تلبيتكم نداءنا ؟ ليس عندنا معادلة سحرية لكم ، ولكنا نستطيع ان نقدم لكم مساعدتنا على نطاق اوسع مما سبق ، على ما ارجو ، ان كنتم مستعدين ان تقفوا بجانبنا ، وان تثبتوا معنا في السراء والضراء ، كما فعل الاتراك . واظن انه سيأتي وقت نختار فيه اصدقاءنا ومؤآزرينا على تلك الشروط لأنه ليس عندنا من الاحتياط ما نبذره. ونستطيع ان نقطع لكم التأكيدات بأننا نعني ما نقول . وأننا معكم الى النهاية ، وأننا سنحاول ان نكون معكم ايضاً منذ البداءة إذا كنتم تيسرون لنا ذلك . ولكنا لا نستطيع أن نفعل ذلك ما لم تظهر حكومات تلك البلاد استعدادها وعزمها على تنظيم مواردها المائية والنفطية على السواء . وعندئذ فقط نستطيع ان نساعد على بناء عالم مطمئن آمن .

موقف الاسلام من الاقليات

بقلم و. وندل كامبلاند
وزارة الخارجية، واشنطن

•

ليست مشكلة الأقلية، غريبة عن البلاد الاسلامية، إلا ان موضوعنا هذا الصباح يخص بلاد المسلمين وحدها، ولا سيما البلاد الاحدى عشرة التي تتمتع بحكمها الذاتي، والتي تقع فيها تبعة حماية الاقليات على عاتق المسلمين.

إن مشكلة الأقليات قديمة قدم الاسلام نفسه. وربما كان غريباً هنا ان مركز الاقلية يعتمد على اساس ديني اعتماداً يكاد يكون تاماً. فالجنس واللون واللغة تؤدي دوراً صغيراً جداً. عندما فتح المسلمون اقساماً كبيرة من العالم، وجدوا الشعوب فيها تختلف دياناتهم عن الاسلام الى حد كان التوفيق بينها وبين الاسلام عسيراً، ولذلك سمح لهذه الشعوب ان تبقى اقليات. وحسب التقاليد وضعت الاقليات غير المسلمة، وخاصة المسيحيين

واليهود والمجوس ، رهن قيود والتزامات قانونية بسبب عقائدهم وطقوسهم الخاصة ، ومُنعوا من ممارسة بعض الاعمال التي سمح بممارستها للاكثرية الاسلامية . وهذه الناحية التقليدية من حياة الاقليات في بلاد المسلمين هي التي سنعالجها الآن .

ان الفرق الاسلامية نفسها قد خلقت بعض المشاكل القائمة على الاقلية المذهبية . ذلك ان العلاقات بين السنيين والشيعة والاسماعيليين والدروز وغيرهم لم تكن حسنة . ثم نشأت مشاكل بسبب وجود اقليات جنسية كالاكراد والتركمان .

موقف الاسلام

إن للاسلام ثلاثة آراء اساسية بشأن مشكلة الاقليات . الاول هو نظرية ان العالم لله ، القوة المسيطرة . وهذا الرأي كان تقليدياً وما يزال ، فقد ورد في اثناء السنوات القليلة الاخيرة في اقوال الباكستانيين عن الدستور الذي وضعوه . ولاقرأ لكم القرار الذي اتخذه المجلس التشريعي في الباكستان في ٧ مارس ١٩٤٩ :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

بما ان السلطان على جميع الكون لله تعالى وحده ، وبما ان السلطة التي وكلها لدولة الباكستان عن طريق شعبها ليمارسها وفق الحدود التي ذكرها ، هي أمانة مقدسة ، حيث ستنفذ تماماً مبادىء الديموقراطية والحرية والمساواة والتسامح والعدالة الاجتماعية كما صرح بها الاسلام ، وحيث سيمكن المسلمون من الحياة أفراداً

وجماعات وفق تعاليم الاسلام ومقتضياته كما وردت في القرآن الكريم والسنة ، وحيث ينص على ان تمنح الاقليات حق ممارسة العقيدة والعمل بحرية وحق تنمية ثقافتها ، وحيث سينص على تأمين الحقوق الاساسية التي تنطوي على المساواة في المركز ، وفي الفرص ، وامام القانون ، وفي العدالة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وفي حرية الفكر والتعبير والعقيدة والايمان والعبادة والاجتماع شريطة المحافظة على القانون والاخلاق العامة ، وحيث سينص على تأمين المصالح الشرعية للاقليات والطبقات المتأخرة والمنبوذة . »

ثم قال لياقت علي خان رئيس الوزراء مخاطباً المجلس :

« سادتي : لقد قلت قبل هنيهة ان الشعب هو الممارس الحقيقي للسلطة . وهذا بالضرورة يمنع خطر إقامة حكومة ثيوقراطية . حقاً ان الثيوقراطية بمعناها الحرفي تعني حكومة الله . بيد أنه من الواضح ان العالم كله بهذا المعنى هو حكومة ثيوقراطية ، وإلا فهل توجد بقعة في الكون جميعه خارجة عن سلطان الله ؟ على ان الحكومة الثيوقراطية تعني من حيث الاصطلاح حكومة رجال الدين المرسومين ، الذين يستعملون السلطة من حيث كونهم معينين من قبل اولئك الذين يزعمون انهم يستمدون حقوقهم من مركزهم الكهنوتي ، وليست بي حاجة الى ان اؤكد ان فكرة كهذه غريبة عن الاسلام تماماً . فان الاسلام لا يعترف بالرهبنة ولا باية سلطة

كهنوتية ، وبناء على ذلك فان الثيوقراطية لا وجود لها في الاسلام البتة . واذا كان هناك من لا يزال يستعمل كلمة « ثيوقراطية » بمعنى نظام الحكومة الباكستانية فهم إما واقعون في سوء فهم خطير ، وإما سادرون في دعايات شريرة . وعندما نستعمل لفظة « ديموقراطية » بالمعنى الاسلامي فانها تشمل جميع مظاهر حياتنا . إنها تتناول نظام حكومتنا ومجتمعنا على السواء ، لأن من احدى عطايا الاسلام الكبرى فكرة المساواة بين جميع الناس » .

ويخطر ببالي ان أقول تعليقاً على ذلك انه يشوقنا ان نرى أتستطيع الباكستان ان تنفذ هذه النظرية المسبوكة سبكاً جميلاً ، وان تثبت ان من إحدى عطايا الاسلام الكبرى فكرة المساواة بين جميع الناس ؟ وربما وجد الباكستانيون صعوبة في إفهام بعض إخوانهم في الدين ان هذه الفكرة لا تقتصر على المساواة بين جميع الناس في الاسلام .

ان رأي الباكستانيين يمثل نظرية ان الكون لله حسب الاسلام ، وهناك ، بالاضافة الى ذلك ، مكان المرء في الكون من حيث هو عضو في جماعة من ناحية ومن حيث هو فرد من ناحية اخرى . ونقطة ثالثة هي سيادة المسلمين على منطقتهم او على الكون حيث يوجد حكمهم .

إن العالم يحكمه الله . وجميع الذين يستسلمون اليه هم مسلمون .

فهم وحدهم المواطنون الحقيقيون ، وهم يؤلفون مجتمعاً خاصاً في ظل نظام فرضه الله لا يجوز للفرد ان يخرج عليه ، والمروق من الدين يُعاقب عليه بالموت . والتوكيد على سيادة الجماعة للفرد تظهر في موقف المسلمين من الأقليات المحمية التي يُنتظر منها ان تبقى مخلصة ما لم تختر الاسلام ديناً ، وهي حينئذ تُقبل فيه وتكافأ على قرارها الحكيم . وموقف المسلمين لا يسهل على الامريكيين فهمه ، لان نظريتنا في الحكومة تدعو الى فصل الكنيسة عن الدولة والى قيام حكومة علمانية . وفي أساس الاسلام لا يوجد فصل كهذا ، فالحكومة هي لله الذي يتخذ المسلمين أدوات له ويجعل سائر الناس خاضعين لهم . وان إيمانهم الذي لا حد له بتفوق الاسلام وكونه ختام الاديان لا يحتمل المخالفة او الشك باي حال . ويجوز ان يكون المسلمون متسامحين جداً ، ولكنه التسامح الذي ينبعث من الايمان بالتفوق المطلق .

ان العالم حسب نظرية المسلمين يقسم الى قسمين بارادة الله : الى دار السلام ، اي دار الاسلام ، ودار الحرب . ففي دار الاسلام حيث يمارس المؤمنون بعض الحقوق والواجبات تبرز سلطة الجماعة التي يجب على الفرد ان يخضع لها . وهذه لجميع الاقوام كافة بالرغم من ان الفِرَق في الاسلام قد اوجدت اقليات إسلامية كالتي ذكرناها قبلاً . والقاعدة الاساسية في الدين الاسلامي هي ان الاسلام ختام الاديان ، وانه هو الدين الحق من عند الله الذي يحدد عقائد الناس وسلوكهم . وبتطور هذا النظام اثناء حياة

النبي محمد وبعده صار المسلمون هم المؤمنين ، والمقربين اليه ، وسائر الناس هم غير المؤمنين الذين يخضعون لقيود خاصة . وهذا كان حال الاقلية – الاقلية الاسلامية تاريخياً بالاقل – التي تتولى زمام السلطة وتفرض نظامها على الاكثرية . ودار الحرب هي الدار التي ما يزال الكفاح فيها مستمراً حتى يسود الاسلام . وهي تضم نوعين من الناس : الاول اهل الذمة – المسيحيون واليهود والمجوس ، وهم اهل الكتاب الذين تجب حمايتهم ، في معابدهم ببعض الشروط . والثاني : سائر الناس الذين لهم ان يختاروا إما التدين بالاسلام وإما ان يكونوا عبيداً للمسلمين وإما الموت . وهؤلاء هم المشركون ، الكفرة ، الذين لا حقوق لهم الا اذا اختاروا الاسلام ديناً واكتساب حقوق المسلمين .

واهل الكتاب ، اهل الذمة ، لا يجوز استعبادهم . ولكن كان عليهم ان يدفعوا الجزية التي أعفي منها المسلمون ، وبعض الضرائب المعينة على اموالهم ، التي فرضت فيما بعد على غير العرب ثم على المسلمين جميعاً في آخر الأمر[1] .

---

(١) تنطوي هذه الفقرة على اخطاء كثيرة :

وحقيقة الأمر في هذا الموضوع ان « اهل الذمة » هم الذين عقد بينهم وبين المسلمين حلف يدفعون بمقتضاه الجزية للمسلمين ، ويجب على المسلمين في مقابل ذلك حمايتهم من كل اعتداء يوجه اليهم والدفاع عنهم وحماية عقائدهم ومعابدهم وشعائرهم . ويمثل هذا الحلف خير تمثيل كتاب عمر بن الخطاب الى اهل بيت المقدس من غير المسلمين الذي يقول فيه : « هذا ما اعطى عمر امير المؤمنين اهل ايلياء من الأمان ، أعطاهم اماناً لأنفسهم وكنائسهم وشعائرهم لا يكرهون

وفي البلاد التي فتحها العرب اول الامر في القرنين السابع والثامن للميلاد ، ترك المواطنون المسيحيون واليهود يمارسون طقوسهم الدينية دون اي ازعاج . والاقلية الفاتحة لم تفرض عقائدها الدينية على الاكثرية ، ولكنها اعتبرت المواطن غير المسلم من طبقة أدنى . وقد أسيء استعمال هذه العلاقة بين المسلمين الفاتحين والشعوب التي فتحت بلادها في بعض الاحيان ، وقيل إن السيف استعمل لفرض الاسلام . ولكن هذا وقع في حالات قليلة جداً . والعلماء المحدثون ، على العموم ، متفقون على ان الفاتح المسلم كان رحيماً للغاية بالشعوب التي انتصر عليها . ويقول القرآن : « لا اكراه في الدين » .

وهذه الطوائف سارت في سبيلها في المسائل الاجتماعية والدينية

على دينهم ولا يضار احد منهم » .

وكما يجوز عقد هذه المعاهدة بين المسلمين واهل الكتاب (اليهود والنصارى) يجوز عقدها كذلك مع غير اهل الكتاب من المجوس والوثنيين والبوذيين الخ . ولا يستثنى من ذلك الا طائفتان : احداهما جماعة المرتدين أي الذين اسلموا ثم كفروا ، وثانيها عبدة الأوثان من العرب . فهؤلاء واولئك لايقبل منهم الا الاسلام او السيف .

أما اهل الحرب فهم الذين لم يعقد بينهم وبين المسلمين صلح من هذا القبيل ، وبعبارة أخرى هم الذين لاتزال حالة الحرب قائمة بينهم وبين المسلمين ، سواء أكانوا من اهل الكتاب أو من غيرهم . وهؤلاء يعاملون معاملة الاعداء من المحاربين .

(انظر تفاصيل هذه الاحكام في ابواب السير والجهاد بكتب الفقه وخاصة في المبسوط للسرخسي والبدائع للكاساني والميداني على القدوري) .

وان كانت قيدت في المسائل السياسية. والدخل الكبير من الجزية ردع المسلمين عن تشجيع دخول الناس في الاسلام افواجاً لما يترتب عليه من خسارة في الدخل[1]. وتسامح قدامى العرب الذين دخلوا في الاسلام، ونبذ الاسلام اي تمييز اجتماعي في نطاقه الداخلي على اساس الجنس او اللون او اللغة، قد أديا الى انتقال موقفهم هذا من اهل الذمة الى الاسر الحاكمة غير العربية التي وليت الحكم فيما بعد. وعندما اصبح الاسلام على ممر السنين دين الاكثريه استمر الموقف نفسه نحو الاقليات التي حافظت على ثقافتها في اسرها وكنائسها دون اي تدخل يذكر.

تطور الطوائف الدينية

ان تنوع الاقليات في الامبراطورية الاسلامية استدعى وجود نظام من الرقابة على جانب عظيم من المرونة — وهنا يجب ان نثني على حكمة الجماعات الحاكمة في تلك الاوقات، اولاً، لقد كانت الشريعة هي قانون المملكة، ولكن كان يقصد تطبيقها على دار الاسلام فقط، اي المسلمين. اما الفِرَق غير الاسلامية، وحتى بعض الفرق الاسلامية من غير السنيين احياناً، فقد سُمح لها عملياً

(١) لم ينظر المسلمون في عهود جهادهم الاولى الى هذه الناحية مطلقا، بل كانوا ينفذون تعاليم الاسلام التي توجب على قائد جيش المسلمين قبل ان يبدأ غزو بلد ما أن يعرض على اهله الاسلام او الجزية، فأيهما قبلوا أعفاهم الاسلام من الحرب وحمى ارواحهم واموالهم.

ان تحكم نفسها في الشؤون الداخلية على شريطة ان تدفع الضرائب الواجبة عليها الى الحكام المسلمين ، وان لا تحمل سلاحاً ، وان لا تشهد ضد المسلمين ، وان لا تحاول الزواج من النساء المسلمات . فجميع الشؤون الشخصية تركت الى محاكمها الدينية الخاصة تعالجها . وهذه الطوائف المعروفة بالملل كان يمثلها امام الدولة رؤساؤها الذين كان يعترف بهم رسمياً ، والذين يختارهم اقوامهم رؤساء دينيين لهم ، كالبطارقة والمطارنة والحاخامين او ما يشبه ذلك من القاب . وهذا النظام لا يزال معمولاً به الى يومنا هذا في البلاد التي دين الدولة فيها الاسلام . وقد كان نظام الملل هذا قبل الحرب الاولى يسبب حرجاً كبيراً في بعض الاحيان للحكام الاتراك ، وذلك لمحاولة البلاد المجاورة استغلال تذمر الاقليات في اغراض سياسية . والمذابح الارمنية التي وقعت مراراً — سنة ١٨٩٥ ، ١٩٠٩ ، ١٩١٥ — في انحاء مختلفة من الامبراطورية العثمانية ، كانت عادة نتيجة نوع من التدخل السياسي من قبل دولة اجنبية ونتيجة شك الحكومة في ان هذه الجماعات كانت تُستغل لأغراض التخريب .

وحينما ازداد الاتصال التجاري والدبلوماسي بين الامبراطورية العثمانية واوروبا في القرن السادس عشر ، وأدى هذا الاتصال إلى إقامة الاوروبيين في تركيا ، وضع نظام الامتيازات الاجنبية التي كانت تبيح للبلاد الاجنبية ان تحاكم رعاياها لدى محاكمها القنصلية . وقد كانت هذه الامتيازات بادىء الأمر ترخيصاً من

الحكومة العثمانية للفرنسيين لتشجيع التجارة . وحصل البريطانيون على هذا الحق سنة ١٥٨٠ ، والهولنديون سنة ١٦١٢ وغيرهم ، واما الولايات المتحدة وغيرها، ففيما بعد . والحكومات التي اعقبت الامبراطورية العثمانية ورثت هذا النظام . ثم ألغي النظام أخيراً بجميع مشتملاته في مصر في شهر اكتوبر سنة ١٩٤٩ ، بمقتضى اتفاق دولي ، واليوم لا توجد امتيازات اجنبية الا في مراكش حيث تنعم بها الولايات المتحدة وحدها .

ثم تطور مركز هذه الطوائف المسيحية واليهودية تدريجاً في الامبراطورية العثمانية بحيث سمح ، في بداءة هذا القرن، لخمس عشرة طائفة دينية – أربع عشرة طائفة دينية مختلفة ، وطائفة يهودية – ان تدير شؤونها الخاصة ، وان تتعامل مع جميع اعضائها في جميع المسائل التي تتعلق باحوالهم الشخصية – وهي شؤون الحياة المتصلة بنظام الاسرة : كالزواج والمهر والطلاق والنفقة وتسمية الاولاد والوصاية والميراث ودفن الموتى وإدارة الممتلكات التي تشمل الكنائس والمدارس والمقابر – وهذا التطور في الامبراطورية الاسلامية شبيه بما هو معمول به اليوم في الامبراطوريات الاوروبية فان القوانين التي تطبقها الامبراطورية الفرنسية والامبراطورية البريطانية في بلديها ، لا تطبقانها في جميع مستعمراتها تطبيقاً تاماً لا تغيير فيه . فقد وجد كثير من التسامح ، وتركت العادات المحلية تسير في مجراها : كتعدد الزوجات الذي ما يزال معمولاً به في البلاد التي يحكمها الفرنسيون والبريطانيون مع انها ممنوعة في

كل من فرنسا وبريطانيا .

الموقف الحاضر

أما ما يتعلق بالوضع الحاضر ، فان عدد الدول المستقلة التي معظم سكانها من المسلمين ، إحدى عشرة دولة ، وستصبح قريباً اثنتي عشرة بوجود ليبيا بينها . اما لبنان فمسيحي بكثرة قليلة ، ولذا لا يدخل في بحثنا . وهناك حكومات إسلامية تخضع لنوع ما من السيطرة الاجنبية لم يشملها البحث . والمسألة التي أمامنا الآن هي : ألا يزال النظام التقليدي بشأن معاملة الاقليات بوصفهم مواطنين من الدرجة الثانية كل له محكمته الخاصة للنظر في احواله الشخصية ، ـ متبعاً ، أم قد تغير بوجه من الوجوه ؟ . لننظر في نوع الاقليات الموجودة اليوم في هذه البلاد الاثنتي عشرة المختلفة ، وانا اقرأ هنا من كتاب ألبرت حوراني الذى عنوانه « الاقليات في العالم العربي » ، لكي اقدم لكم قائمة بأسماء بعض هذه الاقليات : المسلمون السنيون الذين لا يتكلمون العربية هم : الاكراد ، التركمان ، الشركس . الذين يتكلمون العربية من غير السنيين ، هم : الشيعة ، العلويون ، الاسماعيليون ، الدروز . الذين يتكلمون العربية من غير المسلمين هم : الروم الارثوذكس ، السريان الارثوذكس ، الاقباط الارثوذكس ، النسطوريون ، الروم الكاثوليك من اتباع الطقوس اللاتينية ، الموارنة ، الروم الكاثوليك ، الاقباط الكاثوليك ، السريان الكاثوليك ، الكلدان الكاثوليك ، البروتستنت ، (الانجيليون والمشيخيون الخ ..)

اما الطوائف اليهودية وشبه اليهودية فهي : الربانيون ، القراؤون، والسامريون . وهناك فرق دينية اخرى هي : اليزيدية ، المندعية ، الشبك والبهائية ثم هناك اقليات لا تتكلم العربية وليست من المسلمين السنيين . منها من يتكلم الفارسية وهي : الشيعة البهائية [1] واليهود . ومنها من يتكلم الكردية وهي : اليزيـــدية والشبك ، والعلويون ، والسريان الارثـــوذكس ، والسريان الكاثوليك ، واليهود . ومنها من يتكلم السريانية وهي : النساطرة ، والكلدان الكاثوليك، والسريان الارثوذكس ، والسريان الكاثوليك. ومنها من يتكـــلم الارمنية وهي : الارمن الارثوذكس ، والارمن الكاثوليك والارمن البروتستانت. ومنها من يتكلم العربية وهي : اليهود، واليهود الذين يتكلمون لغات اوروبية مختلفة كالجركونية، والاسبانية ، والايطالية ، الخ . اما عدد هذه الطوائف في العالم العربي فاني ارجع بشأنها الى الجدول الذي اثبته الحوراني: فالاقباط يزيدون قليلاً عن المليونين . والروم الارثوذكس يبلغون ٣٠٠,٠٠٠. والمسيحيون يبلغون ٦٠٠,٠٠٠. والارمن ٢٥٠,٠٠٠. ومسيحون اخرون ٣٠٠,٠٠٠ . وبذلك يكون عدد السكان المسيحيين جميعاً نحو ٢,٥٠٠,٠٠٠. والشيعة ٢,٢٥٠,٠٠٠. والعلويون ٢٥٠,٠٠٠ . ومسلمون غير سنيين آخرون ٢٥٠,٠٠٠ . فيكون مجموع المسلمين غير السنيين ٣,٠٠٠,٠٠٠ . والاكراد ١,٠٠٠,٠٠٠ . ومسلمون لا يتكلمون العربية ٢٥٠,٠٠٠ . ومجموع المسلمين من الاقليات

(١) ليس في العالم طائفة تدعى الشيعة البهائية ، وانما هناك شيعة ، وبهائية ، وكلتاهما غير الأخرى ، بل بينهما تباين كثير .

التي لا تتكلم العربية ١٫٢٥٠٫٠٠٠ . اما اليهود ٧٥٠٫٠٠٠ ، واقليات اخرى ١٠٠٫٠٠٠ وبذلك يكون مجموع الاقليات في العالم العربي الذي يبلغ سكانه ١٢٨٫٠٠٠٫٠٠٠ [١] ، ٧٫٥٠٠٫٠٠٠ . وبتعبير آخر : إن ربع السكان يتألف من اقليات .

وهناك بالاضافة الى العالم العربي ، اقليات في تركيا : الاكراد نحو ١٫٥٠٠٫٠٠٠ ، الارمن نحو ٦٨٫٠٠٠ ، اليونان ١٢٩٫٠٠٠ اليهود ٥٠٫٠٠٠ ، (وهذه الارقام ترجع الى نحو اربع سنوات) والشركس ١٠٩٫٠٠٠ ، والعرب ١٨٢٫٠٠٠ . اما في ايران فالأرمن ١٢٠٫٠٠٠ ، واليهود ٤٥٫٠٠٠ ، والمجوس ١٢٫٠٠٠ بالاضافة الى بعض الاكراد والتركمان . اما افغانستان فمجموع سكانها ١٢٫٠٠٠٫٠٠٠ ، اكثرهم مسلمون بينهم جماعات قليلة جداً من الهندوس واليهود والسك لا يعرف عددها بالضبط . اما الباكستان فمجموع سكانها نحو ٧٩٫٦٠٠٫٠٠٠ ، منهم ٦٦٫٣٠٠٫٠٠٠ مسلمون والباقون وهم نحو ١٦٫٧ ٪ من غير المسلمين اكثريتهم الكبرى من الهندوس وقليل منهم مسيحيون ، وبوذيون ، وجينز ومجوس . وفي ليبيا يوجد نحو ١٫٠٠٠٫٠٠٠ نسمة جميعهم تقريباً مسلمون عدا اقلية مسيحية معظمها من الايطاليين يتراوح عددهم بين ٤٥٫٠٠٠ — ٥٠٫٠٠٠ ، ونحو

---

(١) هذا احصاء قديم جداً ، فان مصر والسودان وحدهما يبلغان الآن هذا العدد .

ويبلغ العالم العربي الآن نحو خمسين مليونا .

٣٤,٠٠٠ يهودي .

فما موقف البلاد الاسلامية من هذه الاقليات اليوم ؟. اولاً ، ان سبعاً من هذه الدول الاحدى عشرة التي ذكرناها ، يظهر انها دول دينية الى حد ما بذكرها أن الاسلام دين الدولة ، وهذه الدول هي : مصر، والاردن ، والعراق ، وايران ، وافغانستان، والسعودية العربية ، واليمن . اما سوريا فقد نص دستورها الذي سُنّ اخيراً على أن رئيس الدولة يجب ان يكون مسلماً . اما ليبيا فمن المنتظر ان تعلن الاسلام ديناً للدولة . وجميع هذه الحكومات تعلن حرية الايمان والعبادة لجميع مواطنيها ، وبعضها قد جدّد نظامه على طراز غربي اوروبي . فقد ظهر حديثاً في العراق حزب أعلن أنه لا طائفي ولا مذهبي وانه يقاوم الطائفية في الشؤون السياسية، بيد أنه حزب سياسي حديث في اتجاهه هذا.

وهناك مجموع آخر من البلاد – هو تركيا والباكستان وأندنوسيا – لم تتخذ واحدة منها ديناً رسمياً الى الآن ، وان كان التشريع بالضرورة متأثراً الى حد كبير بالمثل والعادات الاسلامية . وهذه الدول الثلاث تضمن الحرية الدينية ضمن حدودها ، وقد تطور الدستور الاندنوسي، كتطور الدستور الباكستاني ، بيد ان كلتا الدولتين قد أشارت الى أنها ترغب في ان يكون لها دين مقرر .

وهناك ثلاث دول ، هي السعودية العربية وأفغانستان واليمن تتخذ الشريعة الاسلامية قانوناً لها ، وتلزم الأقليات ان تخضع له .

والأفغانستان تسمح لأهل الذمة ان يراعوا أنظمتهم الخاصة . أما السعودية العربية فليس فيها أقليات تذكر ، ولكنها ما تزال تتساهل بشأن الرقيق . بيد أن الرقيق لا يؤلف أقلية منظمة . ولم يبق في اليمن إلا عددٌ ضئيل من العرب اليهود ، بعد أن هاجر أكثرهم الى إسرائيل .

أما الواقع اليوم من حيث علاقة الأقليات بالدولة ، فهو أن حرية العقيدة وحرية العبادة والمساواة أمام القانون قد جعلت أساسية في كل من تركيا ومصر وسوريا والأردن والعراق وايران والباكستان وأندنوسيا (ولبنان الذي لا نعده هنا دولة اسلامية) وقد أخذ بوجه عام بالأنظمة القانونية القائمة على أنماط أوربية ، الا في المسائل المتعلقة بالاحوال الشخصية ، فهي ما تزال من اختصاص المحاكم الطائفية . وعلى كل مواطن ان يسجل اسمه في احدى المحاكم الدينية او الطائفية ليرجع اليها عند النظر في الامور المتعلقة بالاحوال الشخصية . والانتقال من طائفة الى أخرى أمر مكروه للغاية . والمسلمون في معظم البلدان ممنوعون بالواقع من تغيير دينهم . وهذا يعني ان الطوائف الدينية غير متساوية في ممارسة أعمالها . فتعدد الزوجات مسموح به للمسلمين ولكنه محرم على المسيحيين واليهود ، لان الحكومة تنفذ القوانين الدينية لكل طائفة فيما يتعلق بالزواج . ولا يسمح للمرأة المسلمة ان تتزوج غير

المسلم، ولكن يجوز للمسلم أن يتزوج أية امرأة تقبل الزواج منه [١].

ويمكن القول بوجه عـــام ان النظام الاسلامي ، من بعض النواحي ، قد منح الاقليات حرية اكثر مما فعل المسلمون أنفسهم. مثال ذلك ان منع المسلمين التعامل بالربا قـد أدى الى ان تصبح الاعمال المصرفية وغيرها من المعاملات بأيدي المسيحيين واليهود. ومن البدهي أن هذا الحال قد تغير في أكثر هذه البلاد ، الا أن الاكثرية ما تزال غير مدركة وطأة القيود التي فرضتها على نفسها .

لقد مثلت قبل نحو خمس عشرة سنة في القاهرة رواية اسمهـــا « حسن و كوهين ومرقس » وظلت تمثل مدة طويـلة . وقد أتقن تمثيل هذه الرواية اتقاناً أثار اعجاب جميع النظارة بقطع النظر عن الطوائف الدينية التي ينتسبون اليها . وكان المسرح غاصاً بالنظارة في كل مرة تمثل فيه . وكان « حسن » يمثل الشريك الأنيق المهذب المهندم الواثق بنفسه في شركة لبيع العقاقير الطبية . ولكنـــه لم يكن خبيراً في أمر سـوى تكوين الاصدقـــاء وانشاء العلاقات الطيبة مع الحكومة . وكان كوهين يمثل الشريك المحافظ الحريص على شؤون المال ، وأمين صنـــدوق الشركة ، ولكن لم تكن له

---

(١) من المسلمات او الكتابيات فقط . ولا يجوز للمسلم ان يتزوج من غير هاتين الطائفتين . فلا يجوز له ان يتزوج بوذية مثلاً او برهمية او مجوسية اووثنية قال تعالى : « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركةولو أعجبتكم » ويقول في جواز زواج المؤمن بالكتابيـــة « ... والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان » .

وجاهة . وكان مرقس يمثل العضو القبطي في هذه الشركة ذا الثياب الرثة والمقدرة على العمل . وحُسن تدبيره الامور هو الذي أنجح الشركة. وعندما كان «مرقس» يدعو «حسن» الى أداء عمل يحتاج الى لباقة كان هذا يقوم به على احسن وجه ، وعندما كان يكلف كوهين ان يجمع مالاً لبعض الاعمال في الشركة كان هذا ينجز الأمر سريعاً . ولكن ما كان حسن ولا كوهين ليستطيعا إنجاز عمل دون استشارة مرقس . وابراز هذه المعاني على المسرح واقبال الناس عليها دون اي اعتراض يدلان على وجود تسامح عظيم وروح طيبة في مصر بين جميع الطوائف ، وعلى أن الطوائف لا تمانع في ان يضحك بعضها على ضعف بعضها الآخر أو قوته.

واليكم مثلاً آخر لعدم انتباه الاكثرية لوضعها الخاص . كنت مرة ابحث في الانظمة الدينية في المجتمع اثناء درس علم الاجتماع الذي كنت ألقيه في مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة . وسألت الطلاب: أتوجد حرية دينية في مصر ؟ فأجاب طالب : « نعم ياسيدي بكل تأكيد فقد ضمنها الدستور » . وعندئذ سألت : «الحرية الدينية لجميع الفرق ؟ » فجاء الجواب : « بكل تأكيد ـ ضمنها الدستور » وسألت : « أيعني ذلك انه إذا رغب شخص في تغيير رأيه في موضوع ما تضمن له الحماية وله ان يفعل ذلك ؟ » وجاء الجواب : « نعم يا سيدي بكل تأكيد » . فقلت : « أظن انه لا اعتراض على ان يعتنق مسيحي او يهودي الاسلام » . فجاء الجواب : « نعم لا اعتراض » . فقلت : « ولا اعتراض على ان يعتنق يهودي

المسيحيـــة او مسيحيّ اليهودية » . فجاء الجـــواب : « نعم لا اعتراض ؟ » . فقلت : « وأظن انه لا اعتراض على ان يعتنـق مسلم المسيحية او اليهودية » . فجاء الجواب : « آه يا سيدي، هناك اعتراض على ذلك » . وعندئذ قلت: « حسناً . أتريدون ان تقولوا ان كل فرد في مصر يتمتع بالحرية الدينية عدا الاكثرية ؟» فأجاب واحد منهم : « ولكن ، يا سيدي ، لا يرغب مسلم في ان يدين بالمسيحية او اليهودية » . وكان من الواضـــح اننا كنا نتكلم في اشياء مختلفة . فقد كنت انا اتكلم عن حرية الفرد ، بينما كانوا هم يفكرون فقط في حرية الجماعة . وهذا الخلاف هو احـــد اسباب النزاع في هذه البلاد اليوم .

ومع أنه توجد ضمانات دستورية لمعاملة الجميع على السواء فيما عدا الاحوال الشخصية ، لاتستلزم هـــذه الضمانات ان يكون الفعلُ مطابقاً الوعد . لقد قلت انه توجد حرية عقيدة وحرية عبادة ومساواة امام القانون ، وما الى ذلك ، ولكن هـــذه الضمانات الدستورية كما يشعر الكثيرون لا تطبّق دائماً . واذكر هنا حادثاً آخر ، لا ألوم بشأنه سلطة ما او قانوناً ، وإنما أودّ أن اشير الى ان العادة راسخة في الجماعات ، وانه يعسر على القانون ان يغيرها . ذلك الحادث هو ان مدرسة تجارية جاءهـا طلب من مدير امريكي لاحدى الشركات الكبيرة يقول : « أود لو انكم تمرّنون أكبر عـدد من المصريين في الاختزال ومسك الدفاتر كي احصـــل على رجال ذوي كفاءة ، وفق القانون الجديـــد الذي يطلب توظيف

اكبر عدد من المصريين » ، ثم يضيف : «واقصد بالمصريين المسلمين» فأجاب مدير المدرسة : « حسناً ، ولكني لم اعلم ان المصريين لا يكونون إلا مسلمين » . فرد على ذلك مدير الشركة : « ولكن قد طلب إلي أن اوظف مسلمين فقط[1] » . والآن فهذه اساءة استعمال لحق ، وهو يكثر في بعض الجماعات ، والأقليات تشمئز منه . وهناك بعض القيود على أماكن العبادة عند بعض الجماعات وتعريف مكان العبادة هو ضروري ، وبعض الدول تصدر رخصاً لأماكن العبادة لغير المسلمين ، كي لا تؤدى الصلاة إلا في هذه الأماكن . واذكر حادثاً واحداً عقد فيه جماعة من الناس اجتماعاً للصلاة في بيت خاص فقبض عليهم لعقدهم اجتماعاً دينياً في مكان لم يكن مرخصاً لاجتماعات دينية . وامثال هذه الامور الصغيرة تعدُّها الاقليات متعبة .

ونقطة ثالثة اود ان اذكرها بشأن ما يعمل به اليوم ، هي ان اكثر البلدان المحافظة ، ولا سيما السعودية العربية ، تقع فيها تسوية مؤسفة احياناً . فوجود عدد كبير من الامريكيين في العربية السعودية في خدمة شركة النفط ، قد أحدث متاعب لا نهاية لها للقاضي المحلي ، من حيث ايجاد تسوية بين سلوك هؤلاء الامريكيين وبين مطالب الشريعة . وفي زيارة قمت بها الى تلك البلاد في صيف

---

(١) من الذي طلب اليه هذا ؟ وكيف يطلب اليه هذا — مع ان قانون الشركات لا ينص على المسلمين وإنما يسوي بين جميع المصريين مسلمين كانوا أم مسيحيين أم يهوداً ... الخ ؟

١٩٤٩ اجتمعت بالقاضي وتحدثت اليه ، وعجبت لتسامحه وقدرته على التغلب على الصعوبات بالاعتماد على براعته حين يعجز عن إيجاد مخرج آخر . على ان هناك قيوداً على العبادة تمنع الامريكيين الذين يعملون في تلك الشركة من إنشاء كنيسة . والامريكيون هناك يصعب عليهم قبول بعض الاحكام الصارمة الناتجة عن خرق القوانين المحلية التي تنص عليها الشريعة ، ومع ذلك اظهرت الحكومة العربية السعودية تسامحاً عظيما ومقدرة في إجراء التسوية اللازمة .

ونقطة رابعة هي ان الاقليات القومية التي تخضع لعدد من الدول تكوّن مشكلة لم تحل بعد ـ مثال ذلك الاكراد الموزعون في ايران والعراق وسوريا وتركيا. فهم بوصفهم أقليات خاضعون لسياسة تختلف باختلاف البلدان ، ومع ذلك ينزعون نزعة قومية تحاول ان تحفظهم من الاندماج في غيرهم والاختفاء بتاتاً . اما ما يتعلق باليهود فان التطورات الاخيرة قد جعلت مركزهم خطيراً في الدول العربية . فردُّ الفعل لدى المسلمين من ناحية ـ اي ردّ الفعل الشعبي ـ وسياسة اسرائيل القائمة على جلب اليهود في جماعات كبيرة من البلاد العربية المجاورة من جهة ثانية ، مما يُعقد هذه المشكلة ، ومع ذلك لم يتغير مركز الاقليات اليهودية القانوني جوهرياً بالنسبة لمن يختار منهم البقاء في موطنه .

ونقطة خامسة هي ان مشكلة الاكثرية في بعض الاحيان هي أشد بروزاً من مشكلة الاقلية . فقد يحدث ان توجد أقلية بشخص

واحد بين اكثريات . فماذا يحدث له ؟ ان تشدد الجماعة الاسلامية في مراعاة الدين قد أحدث لها مشاكل خاصة في بعض الاحيان . فالارتداد عن الدين كان عقابه الموت . وهذا العقاب قد تغير في جميع البلدان تقريباً . ولكن الاجماع هو على عدم السماح لاي مسلم أن يرتد عن دينه . واذا انشق احدهم عن الجماعة دون ان يبلغ درجة الردة ، فان رد الفعل الشعبي – الذي تدعمه السلطات في الاغلب – يحدث مشكلة . فقد حدث أخيراً في حلب ان مسلماً فلسطينياً لم يرتب أحد في صحة اسلامه نشر مقالاً عن مولد النبي فسّر فيه بشيء من الحرية عادة المسلمين – كما بلغني – على وجه خاص ، مؤداه ان جميع العادات الاسلامية التي يمارسها [1] الفرد لا ضرورة الى التقيد بها اليوم ، وان الجماعة الاسلامية هي اليوم اكثر تسامحاً من قبل ، وان المسلم يتمتع بحرية اكثر نسبياً باعتباره فرداً . وبسبب المقال قُبض على الرجل بتهمة الطعن في دينه . وهاجم الشعب السجن في حلب محاولاً الاقتصاص منه بلا محاكمة . ولكنه نقل الى مدينة اخرى ليحاكم . ويحتمل ان يحكم عليه بالسجن سنتين ان أُدين [2] . ان هذا الرجل

---

(١) الجملة غير مفهومة . ولعله يقصد الأمور التي يحاكي فيها بعض الطوائف الاسلامية ما كان يعمله الرسول بحكم عادته ونشأته لا ليكون تشريعا ، اي ما كان يؤديه بوصفه فرداً لا بوصفه رسولا ، كعاداته في المأكل والمشرب والملبس ... وما الى ذلك

(٢) لقد صدر الحكم بعد المحاكمة بالسجن اربعة أشهر وبغرامة قدرها ٢٥ ليرة سورية ، والابعاد من سوريا . وعطلت الجريدة التي نشرت المقال .

مسلم ، ولم يطعن في الدين نفسه ، ولكن لم يتفق رأيه والآراء الشائعة . وفي هذه الحالة يظهر ان السلطات نفذت رغبة الشعب .

الخلاصة

وأود ان أُلخص الآن ما قلت في خمس نقاط . الاولى : أنه يلاحظ ان نمو الحضارة بين الطبقات المثقفة من المسلمين قد ادى الى زيادة التسامح نحو الاقليات ، والى الحد من القيود عليها ، كما ادى الى زيادة التسامح عامة . وإن الحاجة الى الخدمة الاجتماعية قد فتحت المجال لظهور مبدأ يقف الناس حياتهم عليه بدلاً من الاستغراق في الجدل الديني وحده . وفي سنة ١٩٤٦ زرت شيخ الازهر الجديد الشيخ مصطفى عبد الرازق الذي كنت اعرفه منذ سنوات ، ورأيي فيه انه انبل رجل رأيته — لأنه مثقف ، لطيف ، متسامح ، وطيب من جميع النواحي . وفي ختام زيارتي لتهنئته بالمنصب هز الشيخ يدي وقال : « يا مستر كيلاند يبدو لي ان على الازهر ان يسهم اكثر مما أسهم قبل في الخدمة العامة . وأود ان اتحدث اليك يوماً من الايام مفصلاً في هذا الموضوع » . ولكن موته في غير اوانه بعد اشهر قليلة حال دون تطور هذا الامر . على ان روح التسامح التي كان يمثلها تنتشر انتشاراً واسعاً .

الثانية : ان الحركات القومية في حين هي ما تزال قوية ، تتبلور بصورة وحدة ثقافية واسعة . ولكن هنا ايضاً توجد مشكلة

الولاء : أيكون الولاء للقوم او للدولة الواحدة ، او لجماعة مثقفة ، ام لفكرة الاسلام المنتشرة . قال لي مرة سياسي عربي مشهور جداً قبل مدة قصيرة : « انت تعلم ان من المفترض ان اكون قومياً ، ولكني ضد القومية » . لقد كنت دائماً أظنه وطنياً عظيما ، الى ان قال لي : « انا قبل كل شيء مسلم ، والاسلام دولي » .

الثالثة : هي ان بعض العناصر المحافظة تحاول ان تبذل جهداً في توجيه هذه الحركات نحو المثل القديمة الساذجة . فنحن نسمع احياناً عن ظهور شخص يريد ان يكون « المهدي » ، ولقد سمعنا منذ حين اشارات الى حركات كالاخوان المسلمين .

الرابعة ، هي ان هناك مزيداً من الاعتراف بمكانة الفرد في المجتمع . وهناك على الاقل أقوال تؤيد حقه في تغيير علاقاته الاجتماعية والدينية . وهذا النمو ، ولو بصورة كلامية ، هو مهم ، كما أرى ، لانه – كما حدث في درس علم الاجتماع – عندما تسأل أحداً بصورة عامة : « أ أنت متسامح ؟ وهل يجوز للمرء ان يعمل ما يشاء ؟ » يكون الجواب « نعم » . فاذا أوردت حادثة معينة يكون الجواب أصعب . ومع ذلك فان الاعتراف العام بما يجب ان يكون عليه الحال هو مشجع في رأيي .

الخامسة : هي ان هناك استعداداً بين الافراد الذين ينتمون الى فرق مختلفة ، اقلية واكثرية ، للتعاون ولمعالجة بعض المشاكل الدولية الكبيرة معالجة عملية . وأصحاب النيات الطيبة يستطيعون ان يجدوا عناصر مشتركة في اصول تقاليدهم تعين على إذكاء الحركات

التقدمية لدى المسلمين وغيرهم من الطوائف الدينية ، لتحقيق المصلحة الانسانية عامة . ويبدو لي انه ليس هناك ضرورة لاستمرار وجود التقسيمات التي ترجع الى الف سنة ، الى غير نهاية . وفي هذه الايام التي نفكر فيها بعالم موحّد ، وبتعاون الاقليات والاكثريات دون أي تمييز ، وعندما نرى التهديد من بعض الجهات باستغلال الاقليات وخلافاتها اليسيرة لأغراض سياسية ، ولا سيما ما تنزع اليه روسيا في هذا الصدد ، علينا ان نحترس كثيراً ، وان نفكر في نطاق تعاون عالمي . فالاسلام اليوم هو دين زهاء ٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠ نسمة ، فهو لذلك دين حيوي وحي . ولئن كان من اغراض الدين ان يحدث استقراراً اجتماعياً ليمكن القول ايضاً ان من اغراض الدين الحي ان يتطور حسب تطور ظروف الحياة وان تاريخ الاسلام قد أظهر قدرته على احداث هذا التطور ، ولنا ان نعتقد ان هذه المقدرة ما تزال موجودة . على ان المسؤولية تتوقف على المسلمين أنفسهم . حقاً انه « لا اكراه في الدين » عدا اكراه الضمير في داخل النفس .

الاسلام والديموقراطية والشيوعية

بقلم فيليب و. ايرلند
وزارة الخارجية، واشنطن

●

ان موضوع الاسلام والديموقراطية والشيوعية يوحي بثالوث، الا ان غرضنا من هذا الحديث بحث العلاقة بين الاسلام والشيوعية من ناحية، والاسلام والديموقراطية من ناحية اخرى. وسنحاول ان نشير إلى موقف الاسلام النظري من الشيوعية والديموقراطية كما يبدو من اصل الاسلام وتقاليده والاتجاهات الحديثة. وسنعرض كذلك بايجاز إلى وقع كل من الشيوعية والديموقراطية في الاسلام.

يجب ألا ننسى ان الاسلام هو دين ٢٥٠–٣٠٠ مليون شخص يستقرون في افريقيا وآسيا من المحيط الاطلسي الى المحيط الهادي، ومن وسط اوروبا وآسيا إلى وسط افريقيا. وهذه المنطقة تحتوي أهم القواعد وخطوط الاتصالات في العالم. فمن شرقي قناة السويس إلى اندونيسيا، يمتد محور المواد الخام ذو الاهمية البالغة للخطط الحربية لكل من الاتحاد السوفياتي والعالم الغربي.

ومما يدل على اهمية الاسلام السياسية انه دين عشرة دول هي: مراكش ، ليبيا ، مصر ، السعودية العربية ، البحرين ، الاردن ، اليمن ، العراق ، افغانستان ، ايران . وست من هذه الدول اعضاء في الامم المتحدة . ثم ان المسلمين يؤلفون الاكثرية او الأقلية المهمة في كل من الباكستان ، ومراكش الاسبانية ، والجزائر ، وتونس ، وغرب افريقيا الفرنسية ، ووسط افريقيا الفرنسية ، والبانيا ، وتركيا ، ويوغوسلافيا ، والسودان ، وشرق افريقيا البريطانية ، واريتريا ، والحبشة ، والاتحاد السوفياتي (وفيه حوالي ٢٣٠,٠٠٠,٠٠٠)، والصين والهند (وفيها ٤٠,٠٠٠,٠٠٠) والملايو ، واندونيسيا ، والفليبين . وانه لمن الأهمية العملية في الصراع الحالي لكسب عقول الناس ان نرى هل الاتجاه الحالي سينقل الاسلام الى معسكر الشيوعية ام الى معسكر الديموقراطية.

ومن الضروري عند بحث موقف الاسلام إزاء اي رأي سياسي ، معرفة الفكر الاسلامي الذي وضعه محمد ، ورضي به اتباعه لا من حيث هو دين فحسب بل من حيث هو كيان اجتماعي سياسي وضع نمطاً لحياة جميع المسلمين الدينية ، والاجتماعية ، والسياسية . إن رسالة محمد تمثل في نظره وفي نظر اتباعه اكثر من مجرد رسالة روحية . فقد كانت تقصد الى ايجاد جماعة منظمة تنظيما اجتماعياً وسياسياً تصبح في النهاية دولة وجماعة دينية . وهكذا اصبح القرآن كما عبر الاستاذ حتي « ليس قلب دين ، وهادٍ إلى ملكوت السماء فحسب ، بل هو مختصر للعلوم ، ووثيقة سياسية تحتوي دستور مملكة ارضية » .

ومن نتائج وحدة الاسلام الأساسية تقسيم عالم البشر الى فرقتين : الاولى تتألف ممن أسلموا لله وهم، لذلك ، الشركاء في دار الاسلام . والثانية تتألف ممن لم يسلموا لله وهم لذلك ينزلون في دار الحرب . ومن واجب جميع المسلمين ان يوسّعوا دار الاسلام ولو بالجهاد عند الضرورة ، حتى تشمل دار الحرب . وعلى ذلك يبدو انه لا محل في نظام الاسلام النظري لآراء سياسية تابعة لأي مثل سواء أكانت شيوعية ام ديمقراطية . ويقتضي قبول الشيوعية او الديموقراطية، او الاعتراف بهما، إنكار وحدة الاسلام الضرورية، ونبذ تعاليم القرآن .

الحواجز الاسلامية امام الشيوعية

إن قبول المسلمين للشيوعية يستلزم حسب القواعد الدينية التي نص عليها القرآن والحديث حواجز اخرى . واولى هذه القواعد هي وحدانية الله : « لا إله إلا الله » . وهذا الركن من اركان العقيدة كان الجامع لشمل المسلمين جميعاً . فان الايمان بالله ووحدانيته هو قلب الاسلام بقدر ما هو الاستسلام لارادة الله . والركن الثاني هو ان محمداً رسول الله وآخر انبيائه واعظمهم . ولم يكن وساطة الوحي في حياته فحسب بل في جميع الاوقات وجميع العصور . والاعتقاد بأن محمداً رسول الله هو ركن اساسي من اركان الايمان يلي الايمان بالله كما يرد في الصلوات. والركن الثالث هو الايمان بان القرآن كلام الله الموحى به الى النبي محمد باللغة العربية . ومن الاركان الاخرى الايمان باليوم الآخر والثواب

والعقاب من الله .

ومقابلة سطحية بين هذه القواعد وبين النظريات المادية والآراء الماركسية واللينينية والستالينية ، تكفي لاظهار المناقضة بين الاسلام والشيوعية . والدليل على ذلك ليس مجرد تصريح لينين المأثور سنة ١٩٠٥ « ان الدين هو افيون الشعوب » بل اتجاه الشيوعية الذي كان دائماً الحادياً وضد الدين . ومثال ذلك ما ورد في التصريح الرسمي الموجه الى الشباب الشيوعيين سنة ١٩٤٦ : « إن النظريات المادية وفلسفة ماركس ولينين وأساس الحزب الشيوعي النظري تناقض الدين ، ان نظر الحزب يعتمد على الحقائق العلمية ، في حين ان الدين يناقض العلم ... وبما ان الحزب يعتمد في نشاطه على اسس علمية فمن الواجب ان يخالف الدين » .

ونصح الشباب الشيوعي بما يلي : « ان الدعاية للالحاد كانت جزءاً حيوياً من نشاط المؤسسات العلمية والثقافية في الاتحاد السوفياتي منذ اول يوم من ايام الحكم السوفياتي . وسيستمر الحزب في متابعة دعايته ضد الدين لانها الوسيلة التي يمكن ان تقضي على رجعية الدين قضاءً تاماً » .

ومن البدهي ،بناء على ذلك ، انه لايوجد في الشيوعية مكان لله او محمد او لأي نبي آخر او للقرآن بوصفه كتاباً منزلاً او شريعة ،او لليوم الآخر او لقضاء الله وقدره. فالشيوعية هي نقيض الاسلام .

وهناك مبدأ آخر يناقض الاسلام وهو ملكية الدولة لوسائل الانتاج وللملكية ، في حين ان نظام الملكية الفردية وقداسته قد اقرهما القرآن وجرى عليهما المسلمون . وقد ورد مثلاً في خطبة الوداع [1] التي خطبها النبي العبارة التالية: « ايها الناس اسمعوا قولي واعقلوه تعلمنّ ان كل مسلم اخ لكل مسلم ، وان المسلمين اخوة ، فلا يحل لامرىء الا ما اعطاه عن طيب نفس منه » . وورد في نص الفتوى التي اذاعها مفتي الديار المصرية ان العقلية الاسلامية التي تعترف بحق الملكية المقدس ، تناقض تعاليم « الدعاة الهدامين » الذين « ينكرون حق الملكية الفردية للأرض ، والذين اقاموا نظمهم الاقتصادية والاجتماعية على هذا المبدأ » . ويتضح من هذا ان المسلمين المخلصين العاملين يقاومون الشيوعية مقاومة صادقة .

مخالفة الدعاية الشيوعية لاعمال الشيوعيين

إن الاسلوب الذي ينتهجه الشيوعيون نحو الشعوب الاسلامية ذو وجهين . وهو عمل مألوف لدى الشيوعيين الذين لا يعبأون بالمتناقضات . فالشيوعيون « بكونهم دعاة ثورة عالمية من ناحية ، وبكونهم شعباً يطمع في التوسع من ناحية اخرى ، ينظرون الى الاسلام على انه وسيلة الى غاية . والمسلمون وغيرهم من شعوب البلاد المستقلة يؤلفون « الاحتياطي » في وجه الرأسمالية ، على حد

(١) ليس هذا من نص خطبة الوداع ، بل منقول بالمعنى ، ويرجع الى النص الصحيح في كتب السيرة ، مثل ابن هشام ص ٩٦٩ .

تعبير لينين ، الذي يمكن دفعه الى الثورة في وجه الاسياد المستغلين المستعمرين كي يعجل بانهيار البلاد الرأسمالية ، في الثورة العالمية . وهم ايضاً الوسيلة لتوسيع السيطرة السوفياتية وتسهيل التوسع السوفياتي في النهاية . ولم يكن من المصادفة توجيه الروس عناية خاصة نحو مسلمي ايران والعراق الذين يقطنون في حدود المناطق التي يطمع فيها الروس باتجاه الخليج الفارسي والهند .

ولكي يحقق الشيوعيون هدفهم القائم على اعداد الظروف التي تؤدي الى طرد النفوذ الغربي ، والى التمهيد للثورة ، توسلوا اخيراً بالقومية ، وبما يبديه الناس من تذمر في الحقلين الاقتصادي والسياسي ، وعزَوْا مساوىء الاحوال العامة بين المسلمين ، في الدرجة الاولى ، الى « الكتلة الانجلو ـ اميركية المستعمرة » ، وفي الدرجة الثانية الى الاقطاعيين واصحاب الشركات وموظفي الحكومة المتآمرين مع الاجانب وشيوخ القبائل ورجال الدين المسلمين .

وفي احيان كثيرة ، قد استُعمل المسلمون الذين اعتنقوا الشيوعية لاثارة هذه الامور ، كما فعل الملاّ مصطفى في بياناته للاكراد . ومن الامثلة الحديثة للدعاية الشيوعية على ألسنة المسلمين ما يعرف « بميثاق السلام » في استكهولم . فقد اذاع الكرملين أن المفتي الاكبر لمسلمي الجمهوريات التابعة للاتحاد السوفياتي صرّح قائلا : « عندما نصلي لله أن يحفظ الشعوب في سلام أدعوكم أن تنضموا الى حركة المسلمين في وسط آسيا وكزاكستان للدفاع عن السلم العالمي » . وتوجه زعماء اذربيجان ومسلمي الاكراد بمثل

هذه الدعوة الى مسلمي ايران والعراق. وقد استُغل كذلك توقيع مفتي بعلبك ، واثنين من زعماء الدين في العراق ، لم يذكر اسماهما على ميثاق السلام العالمي . وهناك حالات استُغلت فيها الظروف السائدة الى حد الانفجار . ومع ان الحقائق المحيطة باغتيال رازمارا ، رئيس وزراء ايران ، لم تعرف تماماً ، ربما كشف النقاب يوماً عن ان الدعاية الشيوعية هي التي اثارت الجمعية الاسلامية التي ينتسب اليها القاتل .

وقد قصد من رسم صورة مثالية للاسلام في الاتحاد السوفياتي ، بنشر الصور التي تظهر الجوامع النظيفة التي يؤمها المسلمون ، والمدارس ، والجامعات ، وما الى ذلك من وسائل لتثقيف المسلمين ، ان يظهر للناس ان الاتحاد السوفياتي هو صديق الاسلام المخلص الوحيد . ولكن مما يدل على ان الصواب عكس ذلك هو ان السلطات السوفياتية رفضت قبل بضعة اسابيع ، السماح لوفد من مسلمي روسيا بحضور المؤتمر الاسلامي العالمي في كراتشي ، بالرغم مما أذيع عن انه سيحضر المؤتمر .

وفي الوقت نفسه الذي ظهرت فيه هذه المحاولات ، بقصد ايهام المسلمين بتسامح الاتحاد السوفياتي وقوته وما يقدم من فرص طيبة ، سلك رجال الكرملين طريقاً عملياً مخالفاً ذلك مخالفة تامة . فهم بوصفهم ماركسيين ولينينيين وستالينيين رأوا من الضروري ان يسلبوا الاسلام قوته بوصفه ديناً ، وان يستبدلوا الولاء للاتحاد السوفياتي بالولاء للاسلام ، وان يقطعوا صلات المسلمين

السوفياتيين بسائر مسلمي العالم . وقد أجبر الكرملين على سلوك هذا المسلك ليس بفعل الشيوعية النظرية فحسب ، بل بما اظهره المسلمون من اصرار على تفضيل الاسلام على الشيوعية ، وبما أبداه مسلمو وسط آسيا من عداء متواصل إزاء ما اعتزمه الروس من دمجهم في الاتحاد السوفياتي عن طريق القتل والتدمير .

ومحاولة السوفيات هذه قد خففت من حدتها الضرورة الناجمة عما يعتري السلطة السوفياتية من حالتي قوة وضعف ، وعما يرجونه من فائدة سياسية من ظهورهم بمظهر المحسن للاسلام. مثال ذلك أن وجد الروس من الضروري قبل محاكمة خيانة طشكين سنة ١٩٢٩ ان يتخذوا جانب الرفق . ثم أصاب موقف الشدة الذي وقفوه بعد ذلك تراخ في اثناء الحرب العالمية الثانية . وتجديد الحملات على الاسلام في الوقت الحاضر يشير الى ضرورة القضاء على الحران الذي يبديه مسلمو المقاطعات التابعة للاتحاد السوفياتي . وهذه الضرورة قد تغلبت ، كما يبدو ، على رغبة الاتحاد السوفياتي في الظهور بمظهر المحسن امام المسلمين في خارج الاتحاد السوفياتي. ويظهر ان سياسة التشريد قد جُدِّدت ، إذ نقلوا الروس الى المناطق الاسلامية ، ونقلوا عدداً كبيراً من المسلمين الى الجهات الشرقية ، وتشتمل الحملة الجديدة على تحامل شنيع على محمد الذي يمثلونه بتاجر ارستوقراطي إقطاعي استخدم الاسلام والعرب لمصلحته الخاصة .

وتركزت حملاتهم ايضاً على فصم العلاقة بين مسلمي روسيا

وسائر المسلمين ، وعلى الطعن في الوحدة الاسلامية والوحدة التركمانية . وليس من الغريب ان تكون إحدى نقاط الهجوم المستمر، الشريعة الاسلامية مع اعتراف ستالين بها سنة ١٩٢٠ . وقد أعلن إلغاء الشريعة بطريقة غريبة في يناير سنة ١٩٥٠ إثر القرار الذي اتخذه العمال السوفياتيون بان قانون السوفيات صالح بطبيعته للجميع . ويمكن الاشارة الى ان إعلان إلغاء الشريعة بحد ذاته يشير الى ان رضى الشعب بها كان عظيما الى حد يسمح باستمرارها بين المسلمين .

الحواجز الاسلامية في وجه الديموقراطية

ان استعراض الحواجز في داخل الاسلام امام الديموقراطية يستلزم السؤال التالي : اي نوع من الديموقراطية ؟ وهو السؤال الذي يسأله المسلمون انفسهم . ان الديموقراطية على ألسنتنا وعلى ألسنة الشيوعيين تحمل معنيين مختلفين اختلافاً تاماً . وكون الديموقراطية تلك الناحية السياسية من الحضارة الغربية المعاصرة ، التي تتطلع اليها الشعوب الناهضة في كل مكان ، لانها مشتملة على المبادىء والوسائل لتحقيق الاستقلال ، وللدخول في مجتمع الشعوب الغربية ، جعل تقليد السوفيات إياها أعظم خطراً من تقليد المستعمرين .

والواضح أن الديموقراطية من حيث معناها ولفظها ليست محدودة . فهي تعني الحكومة الشعبية بمعنى اشتراك الشعب ، او

على الأقل معظم الشعب فيها . وهي تعني تأسيس هيئات تنفيذية وتشريعية تكون مسؤولة امام المنتخبين . على ان محاولة خلق ديموقراطية عن طريق استعمال النظم الديموقراطية ، من حيث المظهر دون الجوهر ، لم تكن مثمرة دائماً ، كما تدل الشواهد التاريخية والدستورية . وهكذا فان اقامة نظم برلمانية تحدد فيها الواجبات والمسؤوليات تحديداً جميلاً في الدساتير المكتوبة في نهاية الحرب الكبرى الاولى، بتأثير ديموقراطية ولسن ، انعشت الأمل في الأمم الحديثة بأن هذه المؤسسات ستحقق النتائج المرجوة . على انه قد ازداد اليقين بان الديموقراطية اذا نظر اليها من حيث المظهر دون الجوهر ، او اذا انشئت في بيئات غير ملائمة ، لاتكون دائماً منتجة .

إن الذي اكسب فكرة الديموقراطية الغربية الصلاح هو مبدأ الكرامة والقيمة الذاتية التي تتضمنها الديموقراطية ، مضافاً اليها الاعتراف بضرورة مساهمة اكبر عدد ممكن من الناس مساهمة عقلية في الجهاز الحكومي، وبالتوجيه في حالات كثيرة،نحو تحقيق العدالة الاقتصادية والاجتماعية . وهذا يمكن أن يوجز في عبارتنا المألوفة « تحقيق اكبر كمية من الخير لأكبر عدد من الناس » . وربما كانت كذلك . وعلى كل حال فانه من الممكن ان يذكر ان الصفة الرئيسة للديموقراطية توجد في قواعدها الفلسفية والاخلاقية لا في ايجاد او اتخاذ صور نظم معينة . وبهذا المعنى بالذات أود ان ابحث العلاقة بين الاسلام والديموقراطية .

يبـــدو من النظرة الاولى انه توجد ظروف ملائمة جـــداً للديموقراطية في داخل الاسلام . فان الاسلام كان اعظم الديانات توفيقاً في إزالة فوارق الجنس واللون والقومية . ففي المسائـــل الدينية ، كما قال هـ. ا. ر. جب : « يتساوى احقر مسلم مع الخليفة او قاضي القضاة ، والسلطة النهائية ترجع إلى إجماع الشعب . »

ومضافاً الى ذلك أن الاسلام يدور على الفرد . فالفرد هو الذي يستسلم لله ، ولا وسيط بينه وبين ربه سواء أقديساً كان ام شفيعاً . على ان عنصراً واحداً هاماً ، مفقود . فان العائق الديني ، كما هو موجود في الاسـلام ، يحول دون تساوي الأفراد الذين ينتمون إلى ديانات مختلفة . فصفة الاسلام الشاملة تقتضي ان يدخل الأفراد في دار الاسلام كي يحصلوا على مراكز متساوية ، قبل ان يصح لهم ان يشتركوا في الديموقراطية السياسية .

ويمكن القول ان العربي ، ولا سيما البـــدوي في الصحراء ، ديموقراطي بالولادة . وكثيرون منا ممن ألموا بتلك الديموقراطيـة يقرون بصحة هذه الحقيقة . ويضاف الى ذلك أن الشيخ هو رأس قبيلته الذي تنتخبه القبيلة نفسها . والشيخ عادة يستشير في المسائل القضائية والحربية وغيرهـــا ، المجلس الذي يضم شيوخ الأسر التي تتألف منها القبيلة . والشيخ يتمتع بالسلطة ما اعترف له بها هذا الفريق . على انه لا يجوز ان يُحتج بهذا على ان الديموقراطية توجد في الاسلام على الاطلاق . فان النظام الديموقراطي بـــين عرب الصحراء نشأ عن الكيان الاجتماعي للصحراء . فهو عربي لا اسلامي

والاسلام لا يوجبه .

اما وجود ديموقراطية سياسية في الاسلام فمسألة فيها جدال .. وأرى لجملة أسباب انهـا لا توجد فيه الآن . وبشأن الحكم او نوع النظام الديموقراطي فأنا اميل الى الاتفاق مع هـ.ا.ر. جب فيما خلص اليه من انه « حتى المساواة النظرية بين جميع المسلمين ليست كافية لاثبات الديموقراطية السياسية في الاسلام ، مع نص القرآن في جملة مواضع على تأييد هذه المساواة ... وإن ادارة الشؤون العامة للحكومة العلمانية من قبل هيئة عامة من المؤمنين قد وجد حقاً في القرن الاول للاسلام ، ولكنه لم يلبث ان أهمل بأنه بدعة لما أبداه المؤمنون به من غلو » .

ويذكرني هذا بقصة رواها شيخ محـترم هو عبد الرحمن الكيلاني نقيب بغداد ومن نسل عبدالقادر الكيلاني . فقد اصبح هذا الشيخ اول رئيس لوزراء العراق . ووضع دستوراً للبلاد اقترح هو نفسه كثيراً من مبادئه . وذات يوم جاءه شيخ من قبيلة شمّر في حائل ليقدم اليـه تحياته . وسأله النقيب : « أأنت ديموقراطي ؟ » فأجاب الشيخ : « لا . لست ديموقراطياً . وما الديموقراطية ؟ » فرد النقيب : « اجل . انا شيخ الديموقراطية » . وعندئـذ قال الشيخ : « اعوذ بالله ! اذا كنت انت شيخ الديموقراطية فيجب ان اكون انا من الديموقراطيين ، لانـني انا دائمـاً تحت امرك . وما الديموقراطية ؟ » فأجـاب النقيب : « الديموقراطية هي المساواة . فليس هنا كبير ولا صغير . فالجميع

متشابهون ومتساوون » . وحين سمع الشمري هذا الشرح ورأى سلطته القبلية تزول قال : « يشهد الله أني في هذه الحالة لست ديموقراطياً » .

وادارة الحكومة الاسلامية ليست فقط خارج ايدي الهيئة المؤلفة من المؤمنين ، ولكن الديموقراطية تخالف الاسلام لانها تسن قوانين يُعمل بها دون الشريعة . مضافاً إلى ان نشر الدين الصحيح ، في نظر الاسلام ، هو هدف الحكومة الدينية — السياسية ، في حين ان نشر التسامح ضروري للديموقراطية السياسية . ثم إن النظام الديموقراطي يرفضه المسلمون السنيون لأنه من نتاج المشركين والمستعمرين والماديين .

نفوذ الشيوعية

من الواضح تماماً انه بينما يتعارض الاسلام مع الشيوعية نظريا، قد كسبت الشيوعية في الواقع عـــدداً كبيراً من الانصار بين المسلمين . فهناك قرائن كثيرة تدل على ان الشيوعية موجودة في مصر ، وإن كانت الاجراءات الرادعة قد أدت الى تستر هذه الحركة . وهناك تقارير متعددة ، لم تتحقق صحتهـــا بعد ، تشير الى انه اكتشفت خلايا شيوعية في مدى سنوات بين جماعات من الفلاحين وفي مجلس النواب وفي الوزارات وحتى بين عدد من صغار الموظفين في مجلس الوزراء . ويقال إنها دخلت حزب الوفد بوساطة الشبان الوفديين ، وجماعة الاخوان المسلمين ، والازهر

حيث يقال إن عدداً من طلابه واثنين من شيوخه هم أعضاء خلايا شيوعية .

أما في سوريا فعدد الشيوعيين يقدر بنحو ٨٠٠٠ ، وفي لبنان بنحو ١٥٠٠٠ ، ليسوا جميعهم مسلمين بالطبع ، ويقدر عددهم في العراق بنحو ١٠٠٠٠ معظمهم من المعلمين والطلاب والعمال والطوائف الاقلية . ويقال انه وجد نشاط شيوعي في بعض المناطق القبلية ، وبين رجال الشرطة والجيش وموظفي الحكومة . وفي مناسبتين سيقت جماعتان كبيرتان الى المحاكمة بتهمة الشيوعية . ومن الستين شخصاً الذين حوكموا في أوائل سنة ١٩٤٩ شنق اربعة اشخاص وحكم على ٣٤ شخصاً بالحبس المؤبد . وانتشرت الشيوعية في الاردن ولاسيما اللاجئين الفلسطينيين ، الذين أعان تشردهم وبؤسهم على تأثرهم بالدعاية . أما السعودية العربية واليمن وحضرموت فان صفة الاسلام البدائية الصارمة أثبتت على انها حائل هناك دون الشيوعية من الناحية العملية والنظرية على السواء .

واحتلت الشيوعية مكاناً صغيراً في تركيا ، وذلك في الدرجة الاولى بسبب الاجراءات الرادعة التي اتخذتها الحكومة منذ البداءة . ووجد انصار للشيوعية في إيران بين الاكراد والاذربيجانيين والايرانيين انفسهم الذين ينتسب عدد كبير منهم أو كانوا ينتسبون إلى حزب توده ، أو حزب الجماهير ، ويعملون لانتصار الشيوعية . ويقال ان في شرقي الباكستان حزباً حسن

التنظيم يبلغ اعضاؤه ٦٠٠٠ - ٨٠٠٠ شخص . والعدد في غربي الباكستان أقل من ذلك ، والحزب هناك ليس حسن التنظيم ، وفي كلا جانبي هذه الدولة ، اللذين يعيش فيهما « مسلمون يمارسون مبادىء الاسلام » كان نجاح الشيوعية اكثر بين موظفي الحكومة والطلاب وعمال المصانع .

ومن اسباب انتشار الشيوعية ، رغم مخالفتها للنواحي النظرية من الاسلام : اولاً العلمانية . فإن الاحتكاك بالغرب وبالتعليم العلماني والعلمي قد اضعف سلطة مبادىء الاسلام . وتجد الشيوعية تربة خصبة بين بعض الطبقات بسبب توكيدها للمادية . وهذا ينطبق على الطلاب خاصة . فانهم ، بسبب قلة الفرص التي تهيئهم لها دراساتهم ، وبسبب ما يتعرض له اكثرهم من إثارة مردها فتنة القومية ، حريصون على ايجاد وسائل لتغيير الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في بلادهم ، وحريصون في الوقت نفسه على ايجاد مراكز لانفسهم مكافأة لهم على مساعيهم . ومعظم هؤلاء الطلاب الذين سئموا البرامج التقليدية للاحزاب السياسية القائمة لا يجدون خططاً ايجابية للتنفيذ سوى الخطط الشيوعية التي تُعرَض عليهم عرضاً منطقياً مغرياً . وليس غريباً ان يجد عدد كبير من الطلاب الذين لم يحصلوا « في الغالب » على قسط مناسب من الفكر والثقافة الغربيين ، والذين مُنوا بالخيبة لتقديرات شخصية ووطنية ، ان يجدوا الديموقراطية قاصرة والشيوعية مرضية . وهذه الظاهرة لا توجد في البلاد الاسلامية وحدها . ولنذكر هذا المثل : « ان من

لا يكون اشتراكياً في العشرين من عمره لا قلب له ، ومن يكون اشتراكياً في الاربعين من عمره لا عقل له ». والطلاب في كل مكان لا يحتملون الصبر ، ويتعجلون السير ، ويرون الاساليب التقليدية غير مرضية البتة . وعدم الصبر هذا يفتح المجال امام الشيوعية .

وعامل ثان من عوامل قوة الشيوعية هو القومية . فالعداء الذي تثيره القوى الاستعمارية في البلاد الاسلامية غير المستقلة قد استغله الشيوعيون المحرضون احسن استغلال . ولأن القومية قد لبست بعض صفات الدين ، وجنحت في بعض الاحيان الى القيام مقام الاسلام ، فان الطريق قد مُهِّد لتحالف الشيوعيين والمسلمين وقد غض القوميون المتطرفون النظر ، في حالات كثيرة ، عن خطر الاستعمار السوفياتي الواضح . ولسان حالهم هو : « ان من كان بعيداً يؤذينا اقل ممن هو قريب » وهذا السبب نفسه حمل كثيراً من القوميين المسلمين على قبول النازية . والمكان الوحيد الذي عجزت فيه الشيوعية عن محالفة المسلمين هو شمالي افريقيا . على ان الضغط هناك كان قوياً جداً . فالامير عبد الكريم مثلاً ذكر مراراً انه ما لم تحقق الاهداف القومية لا يستطيع الزعماء القوميون المحليون ان يحولوا دون تسرب الشيوعية .

ثالثاً : ان الازمات الاقتصادية والاجتماعية الحاضرة تُيَسِّر للشيوعية ان تؤثر في المثقفين والطبقات الوسطى المكتئبة والجماهير ويجب ان يذكر ان الحركات القومية والاصلاح الاجتماعي في البلاد الاسلامية وغير الاسلامية لم يبدأ بها الشيوعيون ، وانما هم

استغلوا التذمر وفقدان المساواة والبؤس وردوا أسبابها وبقاءها الى السلطات الغربية ومن تناصرهم هذه السلطات – كالاقطاعيين المحليين وموظفي الحكومة الرجعيين – حتى اضحى الغرب والدول الديموقراطية يعادلون البؤس الاقتصادي والسياسي . وفي الوقت نفسه تزعم الدعاية الشيوعية ان حلّ المشكلة لايكون الا بالشيوعية وهذه المزاعم ، مع كونها باطلة ، استطاعت ان تؤثر في الناس . مثال ذلك ما حدث قبل أسابيع قليلة في المؤتمر الاسلامي العالمي في كراتشي ، فقد صرّح احدُ الخطباء عند بحث إحدى المشاكل الرئيسة في جدول الاعمال ، وهي كيفية مقاومة الشيوعيـــة ، ان المسلمين لا خصام بينهم وبين المذاهب الشيوعيـة الاقتصادية والاجتماعية ، وانمـــا الخصام بينهم وبين الأهداف السياسية السوفياتية .

رابعاً : ان الاسلام ليس حائلا مؤثراً دون سيطرة الشيوعيين لان الشيوعيين لا يحتاجون الى كسب الجماهير كي يسيطروا على بلدٍ ما . ويبدو ان عدداً من الزعماء المسلمين والخبيرين بشؤون الشرق الاوسط يعتقد ان البلاد الاسلامية في أمن مـن الثورة الشيوعية لأن الجماهير التي تخضع للاسلام وتؤمن به ايماناً عميقاً لن تعتقد الشيوعية . وإنه لافتراض معقول أن الجماهير لن تُقبل على الشيوعية بسرعة رغماً عن أن وجود الجوع والفقر والجهل والمرض قد وضع سلاحاً حاداً في أيدي الشيوعيين لفقدان العمل الايجابي من قِبَلِ الزعمـاء . ولكن المهم هو ان الشيوعيين لايحتاجون الى

الجماهير أو حتى الى الاقلية في اي بلدٍ للوصول الى السيطرة . وقد حُصر القيام بالثورة دائماً بنواة صلبة من الثوريين المحترفين يساعدهم المتحمسون الذين يوضعون في مراكز ستراتيجية — في الجيش والشرطة ووسائل النقل والمنافع العامة وما اشبه ذلك . والواقع ان الحكم الشيوعي في البلاد المشايعة لروسيا يُسانده من ٢ الى ٧ في المئة من السكان فقط . وبوساطة هذه الجماعة ، هذه النواة الصلبة ، وبوساطة اقلية ضئيلة جداً من السكان وصل الشيوعيون الى الحكم في البلاد التي تدور في الفلك السوفياتي . وهذا لا يعني أن الثورة الشيوعية وشيكة الوقوع في البلاد الاسلامية . ولكنه يعني أنه في حين يمكن ان يكون الاسلام عائقاً للشيوعية ، لا يقف عثرةً حقيقية في وجهها . ولذلك لانستطيع ان نستلقي ونشعر بالاطمئنان في هذا الوضع .

وفي هذه المناسبة يجب أن يُنظر في : هل الدول المسماة بالدول الاسلامية قد بلغ بها التشبع بالعقائد الاسلامية الصرف الى حدّ ان تتخذ قرارات سياسية وفق هذه العقائد ؟ أليس الأكثر احتمالاً أن الدول الاسلامية تتخذ قراراً وفق مصالحها الشخصية دون اعتبار بما يوجبه النظام الديني ؟ ان الشعب التركي ، الذي يؤلف دولة جلها مسلمون ، قام بثورته بوصفه تركياً لا بوصفه مسلماً ، ومن الواضح ان مقاومة الأتراك للشيوعية لم تكن قوتها لأنها مخالفة للاسلام ، ولكن لأن انتصار الشيوعية ، سواء أجاء من قِبل القوى العاملة في الداخل أم العاملة في الخارج ، يعني نهاية

استقلال تركيا .

تأثير الديموقراطية

ان كثيراً من العوامل التي سهّلت قبول المسلمين للشيوعية يمكن ان تسهل ايضاً قبولهم للديموقراطية . على أنه يجب ان يُعترف بان الديموقراطية تجابه منذ البداءة ضعفاً في كثير من البلاد . فان الديموقراطية هي الفلسفة السياسية للغرب التي اضحت اقسام كبيرة من العالم الاسلامي تعدُّها استعماراً . وينظر الى الديموقراطية إما انها غير مستعدة وإما غير قادرة على حل مشاكل التوزيع الاقتصادي والتمييز العنصري ، والدعاية السوفياتية قد وسعت – بالطبع – واستغلت خيبة الأمل هذه الناجمة عن تلك الحقائق ، او عن الدور الذي لعبه الغرب في قيام اسرائيل ، او عن عدم اكتراث الغرب بالدعوة الى العون والمساعدة ، او عن مظالم حقيقية او خيالية . والواقع ان الخصومة للديموقراطية موجودة في العالم الاسلامي ، ولا سيما الأقسام العربية ، لأسباب فكرية او سياسية ، وان هذه الخصومة قد أدت الى كثير من الحياد الذي يعمّ الآن الشرق الأوسط ، وهي التي تكمن وراء تصريحات الدواليبي « معروف الدواليبي » وما يماثلها ، ووراء التأييد الذي نالته هذه التصريحات في الشرق الأوسط ، وهي تكمن وراء رد الفعل الذي أظهرته الدول العربية نحو قرار الأمم المتحدة عن كوريا ، والذي يتمثل في القول : « ليحلّ الدمار بكلا الجانبين » . ولست واثقاً أكان الحياد نتيجة لتأثير اسلامي

ام نتيجة لعوامل سياسية . على ان المهم هو الحيرة القائمة في أنه : أتستحق الديموقراطية التأييد أم لا ؟ وما آمال الديموقراطية بالنجاح في العالم الاسلامي ؟

أعتقد ، رغم هذه التعليقات المتشائمة ، ان الاسلام يتجه نحو قبول الديموقراطية . والاسلام ، تاريخياً ، قد أخذ واستفاد من النظم السياسية والادارية الضرورية لادارة المقاطعات الجديدة التي فتحها في مرحلة توسعه . ويستطيع الآن ان يفعل ذلك ايضاً . أجل ان الاسلام لم يقبل قط الفلسفة او الثقافة التي رافقت هذا النظام ، وربما كان هذا هو جوهر المشكلة فيما يتعلق بالديموقراطية ، ويمكن ان يقال إنه لو خسر الاسلام المعركة الاولى مع أنصار الهيلينية ، المعركة التي كان يمكن ان تسير في احد الاتجاهين ، لامكن الاسلام ان يقبل الروح والصورة الغربيتين . ويلوح لي ان معركة مماثلة تجري الآن بين الاسلام وفلسفة الغرب ، وان الراجح ان يقبل الاسلام الفلسفة الديموقراطية لسبب رئيس ، هو انتشار الافكار الغربية والتأثير الغربي في العالم الاسلامي .

ومن أهم القرائن المشجعة في الاسلام هو تزايد عدم الرضى عن ناحية الحكم الديني منه التي تؤلف بين الدين والقانون والحكومة والنظم الاجتماعية . وفريق كبير من المفكرين المسلمين يرى فصل الدين عن الدولة ضرورياً . وكتاب علي عبد الرازق – في اوائل القرن العشرين الذي قرر ان نظام الخلافة لم يكن جزءاً ضرورياً في اصول الحكم – اخذ يعطي ثمره الآن . ثم ان المثل

الذي ضربته تركيا يراه الجميع الآن. والتغيير الاجتماعي والسياسي الذي اجرته تركيا لا يبشر بقيام نظم ديموقراطية فحسب بل روح الديموقراطية ايضاً . وقد ظهرت أمارات البحث الروحي فيما يتعلق بمظاهر ضعف الاسلام ، في كراتشي عند انعقاد المؤتمر الاسلامي في الشهر الماضي . فقد صرح رئيس وزراء الباكستان ان علاج الضعف في الاسلام ليس بالشيوعية ولا بالرأسمالية ، بل بالاشتراكية الاسلامية ، مع التوكيد على الديموقراطية والعدالة الاجتماعية والأخوة العالمية . ومولانا تميز الدين خان حصر اعداء الاسلام الخمسة الألداء بالقومية ، والجهل ، والتأخر الاقتصادي والفقر ، والشك ، وعدم الايمان والتدين بين المسلمين ذوي التعليم الغربي التي ترجع اولاً: الى التعليم المادي ،وثانياً : الى عدم المرونة في تفسير الاسلام . وحث شمس الرجال زعيم الوفد الاندنوسي على ضرورة تأليف لجنة من المسلمين الاختصاصيين تضطلع بالبحث والمناقشة لكي تحلل الأفكار الاسلامية ، وتعين على تطورها ، لتساعد على مسايرة التفكير العالمي الحديث .

ويقابل هذه المظاهر المبشرة بالخير وجود نواة صلبة من المسلمين الذين يعتقدون ان خلاص الاسلام هو في المحافظة على حالته الحاضرة . ولكن قبول النواحي الفلسفية من الديموقراطية يعين على تحطيم هذه النواة الصلبة ، كما يؤدي الى عكس الاتجاهات في بعض البلدان التي يشجع فيها التعصب الديني بين الجماهير لكونه وسيلة لاستمرار قناعتهم بحظهم في هذه الحياة ، من الناحية

السياسية والاقتصادية .

على ان شيئـــاً واحداً لا شك فيه ، هو ان اخذ النظم الديموقراطية ، تقليداً للغرب ، او لكونها جزءاً من مستلزمات الاشتراك في العالم الغربي ، لا يغني فتيلاً . فما لم يقرن ذلك بالروح الديموقراطية (وهذه يمكن ان تقرر في الذهن عن طريق اتخاذ الغرب مثلاً ، او عن طريق التطور الوطني) يبقى امل الديموقراطية بالحياة في البلاد الاسلامية ضئيلا . وبدون النتائج الملموسة للفلسفة الديموقراطية الـتي تتطلب الاعتراف بالكيان السياسي والاجتماعي والاقتصادي للفرد وللشخصية الانسانية ، تظل البلاد الاسلاميـــة عرضة لخطر دخول الشيوعية في النهاية من خلال النظم الاجتماعية والاقتصادية السائدة ، بحيث تؤول السلطة الى الشيوعية وهو امر يجر وخـيم العواقب للاسلام ، ولمركز الدول الاسلامية ، وللشعوب كافة في العالم الحرّ .

فهرست الاعلام

صفحة		صفحة	
ابراهيم باشا	٩	جب ، ه. ار.	١٣٦، ١٣٧
ابو بكر	٣٢	الجبرتي	٦٣، ٦٥، ٦٧
اتاتورك ، كمال	٢٩، ٥٤	السحار ، سعيد جودة	٩٧
احمد باشا	٦٣	جونسون ، الدكتور	٩٠
اغسطين ، القديس	٤٦	حتي ، فيليب	٧، ٧٧
افغاني ، جمال الدين	٤١، ٤٢، ٤٩، ٥٣، ٦٢، ٦٨، ٧٤، ٧٥، ٧٦	حسين ، طه	١٦، ١٩، ٧٧
اقبال ، محمد	٦٢، ٧٤	الحكيم ، توفيق	٧٧
اليوت وليم ياندل	٩٠	حوراني ، البرت	١١٢، ١١٣
امين ، قاسم	٧٤	خان ، مولانا تميز الدين	١٤٦
امرسن	٨٠	الخطاب ، عمر بن	١٠٧
ايرلند ، فيليب و.	١٢٦	الخطيب ، الشيخ محمد ثمر	٣٣
براون ، يوليوس آرثر	٢٢	خلاط ، هيكتور	١٩
بيرج ، جون كينجسلي	٧٩، ٩٢	دراز ، محمد	٢٣
		الدنقلوي ، محمد احمد	٤٠

صفحة

الدواليبي ، معروف ١٤٤
دودج ، بايرد ٢١، ٦٢، ٧٨
رازماره (رئيس الوزارة الايرانية) ٩٦، ١٣٢
الرفاعي ، الشيخ ٦٧
الرومي ، جلال الدين ٤٦، ٧٤
الزيات ، محمد حسن ٤٠، ٦٠
السباعي ، مصطفى ١٢
ستالين ١٣٤
السرخسي ١٠٨
سعود ، الملك بن ٣٦
السقا ، مصطفى ٩٧
سليمان القانوني ٨٤
سمث ، ولفرد كانتول ٣٩
السنهوري ، عبدالرزاق ٧٣
السودا ، يوسف ١٩
السيد ، لطفي ١٥
سيف ، الكولونيل ٦٩
الشافعي ٧١
الشبراوي ، الشيخ ٦٤
شمس الرجال ١٤٦

صفحة

طشكين ١٣٣
الطهطاوي ، الشيخ رفاعة ٦٧
عبدالرازق ، علي ١٦، ٧٣، ١٤٥
عبدالرازق ، مصطفى ١٥، ١٦، ١٢٣
عبدالكريم ، الأمير ١٤١
عبد الوهاب ، محمد بن ٥٠
عبده ، محمد ٢٥، ٢٦، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٦٢، ٦٨، ٧٤، ٧٦
عرابي باشا ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٩، ٥٣
العطار ، الشيخ حسن ٦٦، ٦٧
العقاد ٧٧
عقل ، سعيد ١٩
علي خان ، لياقت ١٠٤
علي ، امير ٦٢
الفرنساوي ، سليمان باشا ٦٩
فمبري ٨٤
القدوري ١٠٨
قرم ، شارل ١٩
الكاساني ١٠٨
كارل ، الكسيس ٨٨
كامل باشا ، مصطفى ٤٠

صفحة

كراين ، شارلس ٧٦
كليلاند ، و. وندل ١٠٢
كانتول سمث ، ولفرد ٣٩
كونكلين ، روسكو ٩٠
الكيلاني ، عبد الرحمن ١٣٧
الكيلاني ، عبدالقادر ١٣٧
لنك ٨٨
ليبان ٨٨
لينين ١٢٩، ١٣١
ماركس ، كارل ١٢٩
محمد (النبي) ٧، ١٥، ١٨، ٢٣، ٣٢، ٣٥، ٧٧، ١٢٧، ١٢٩، ١٣٠، ١٣٣
محمد علي باشا ٩، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٦٩

صفحة

محمد الفاتح ٨٤
محمود الثاني ٨١
المراغي ، الشيخ ٢٦
المرغني ٧٢
مصطفى ، الملا ١٣١
المهدي ٤٠، ٤١، ٤٩، ٧٢
موسى سلامه ١٩
الميداني ١٠٨
نابوليون ٨، ٩، ٦١، ٦٥
نديم ، عبدالله ٤٠
هيكل ، حسين ٧٧
ولسن ١٣٥

فهرست

		صفحة
المقدمة [1]		٣
الاتجاه الحديث في الاسلام	« فيليب حتي »	٧
نظرة في المظاهر الروحية والاخلاقية للاتجاهات الحديثة في الاسلام	« بايرد دودج »	٢١
الاسلام يواجه العلمانية والغربية	« ولفرد كانتول سمث »	٣٩
الاسلام والعلمانية الغربية	« محمد حسن الزيات »	٦٠
الاسلام في تركيا الحديثة	« جون كينجسلي بيرج »	٧٩
اهتمام الولايات المتحدة الحربي بالعالم الاسلامي	« وليم ياندل اليوت »	٩٠
موقف الاسلام من الاقليات	« و. وندل كليلاند »	١٠٢
الاسلام والديمقراطية والشيوعية	« فيليب و. ايرلند »	١٢٦

(١) عنوان هذا الكتاب بالانكليزية : « الاسلام في العالم الحديث »
Islam in Modern World

مطبعة دار الكتب - بيروت - بناية اللعازارية

297.197:I82isA:c.1
حتى، فيليب خوري
الاسلام في نظر الغرب
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01006385

297.197
I82isA